الفصل الثاني

الميدان الصحفي العربي*

بالرغم من نشر عدد من الدراسات مؤخراً حول وسائل الإعلام (الإخبارية) العربية[1] إلا أن فراغاً معرفياً لا يزال موجوداً في الميدان الصحفي العربي: مثل وسيلة بلوغ هذا الميدان، وأسباب انتشاره، والكيفية التي استوعب من خلالها الصحفيون العرب، خصوصاً في ما يسمى الصحافة القومية، طبيعة الدور المناط بهم، وكيف يمكن ربط ذلك كله بالتغيرات في وسائل الإعلام العربية. من ناحية أخرى، يلاحظ أن معظم الدراسات الأخيرة ركزت على ما يمكن وصفه بـ"ظاهرة" القنوات الفضائية العربية (كقناة الجزيرة مثلاً) التي شكلت تحدياً جديداً ومباشراً في مجال الاتصالات لهيمنة وسائل الإعلام الأمريكية[2]، ومنصة حديثة مناهضة للغرب. وفي الوقت الذي جرت محاولات لاستطلاع بعض هذه التغيرات[3]، فإن تلك المحاولات لم تقدم سوى رؤية عامة (كمية) للخلفية التعليمية والاجتماعية لعينات من الصحفيين العرب، كما أن هذه المحاولات لم تتعدّ عتبة تحليل هذه

المهنة من خلال الشهادات الجامعية التي يحملها هؤلاء الصحفيون. كان المطلوب الكشف عن الكيفية التي يبني بواسطتها الصحفيون مهنتهم – مثل دراسة سماتهم الشخصية أو طبائعهم التي وفرت لهم "مفهوماً عملياً" للميدان الذي يعملون فيه. كما أن هناك حاجة للقيام بتحليل الكيفية التي يمكن من خلالها معرفة كمّ رأس المال الثقافي الذي تمتلكه جماعة مهنية محددة من الصحفيين أن يتحول إلى ميادين أخرى كالسياسة، مثلاً.

الصحافة العربية هي ميدان غني للبحث والدراسة؛ لأنها تمثل مهنة معروفة بصورها المتناقضة. يهدف هذا الفصل إلى وضع الصحافة العربية في سياق معاصر من أجل جدولة الأسئلة التي ستلقي الضوء على الدراسات والأبحاث المستقبلية حول المشهد الإعلامي العربي. كما أن الكشف عن النظام الهرمي داخل مؤسسة وسائل الإعلام الإخبارية العربية يمثل أحد الأهداف الثانوية لهذا الفصل. يقال إن نظرية بوردو الميدانية قدمت إطاراً جديداً يتم من خلاله دراسة الصحافة العربية بوصفها ميداناً اجتماعياً يتلاءم مع الميادين الأخرى في المجتمع كالميدانين السياسي والاقتصادي. يهدف هذا الفصل كذلك إلى التدقيق بصورة نقدية، في الدراسات الأخيرة حول وسائل الإعلام الإخبارية العربية، وإبراز نقاط الضعف فيها، ونزوعها باتجاه تجاهل موضوع تحليل مفهوم توزيع السلطات، بالإضافة إلى التركيز على الميل باتجاه وضع الصحفيين العرب جميعاً ضمن إطار واحد، وتصويرهم كمجموعة موحدة متجانسة من الممثلين، بدلاً من تقديمهم كمشاركين من ذوي الرؤى المتشعبة والمتنوعة ضمن هذا الميدان.

يهدف هذا النقاش إلى متابعة اتجاه بحثي جديد لم يولَ العناية الكافية من البحث والتقصي، ومع ذلك، فلا بد من إدراجه كأساس في النقاشات والدراسات حول وسائل الإعلام العربية، والدور الذي تضطلع به في الدولة المعاصرة. سأناقش الحاجة إلى إضافة مسألة المؤسسة النشطة إلى التحليلات المستقبلية، بدلاً من التركيز على البنية أو الرقابة أو الملكية[4]؛ وإلا فإن دور الصحفي في تغيير المشهد الإعلامي العربي سوف يبقى غامضاً؛ ومن ثَمَّ سيعطي الانطباع بأن ظهور مشروعات مغامِرة جديدة كقناة الجزيرة ما هو إلا نتاج لكادر من الصحفيين العرب الثائرين والمتعلمين تعليماً جيداً، وليس نتاجاً لجدلية البنية (أي الملكية والتكنولوجيا والتعليم) والمؤسسة (أي الصحفيين بصفتهم ناقلين للأيديولوجيات والقيم). وهكذا، فلكي يتم فهم الصحافة واستيعابها، كما يشير بوردو[5]، لا بد من فهم الصحافة بوصفها عالماً صغيراً، وكذلك "فهم التأثير الذي يمارسه الناس المنخرطون في هذا العالم الصغير على بعضهم بعضاً".

هناك نقص واضح في الدراسات النوعية بين صفوف الصحفيين العرب؛ لكن الأسوأ يكمن في الاهتمام شبه المعدوم بالبيانات الغنية المتوافرة والمتمثلة في سيَر الصحفيين الذاتية، أو المعايير الأخلاقية للمهنة التي يمكن أن تقدم معلومات في غاية الأهمية عن الخلفية البيئية التي ترسم خريطة الميدان الصحافي. تقدم هذه البيانات خطاباً أعلى للصحفيين يستطيعون بواسطته الحديث عن الأدوار المنوطة بهم داخل ميدان مهنتهم، وكذلك داخل المجتمع[6]. إضافة إلى

ذلك، أضفتِ الأبحاث التي أجريت مؤخراً[7] نوعاً من الشرعية على عملية استشراف الأدبين العربي والإنجليزي (أو أي أدب أوروبي آخر) بشكل متوازٍ بدلاً من بناء استنتاجات تبنى استناداً إلى الدراسات التي تُجرى باللغة الإنجليزية فقط. كشفت هذه الأبحاث عن رؤى في غاية الأهمية حول تطور وسائل الإعلام العربية كما حللها الباحثون العرب، كما ساعدت على لفت الانتباه إلى النقد الذي وجهه الباحثون العرب لبعض النظريات الغربية حول وسائل الإعلام العربية.

استناداً إلى نظرية الممارسة التي طرحها بوردو، فإن هذا الفصل يرمي إلى رسم معالم الأبحاث المستقبلية حول الصحافة العربية كميدان مستقل بذاته تحكمه ضوابطه الخاصة به ورأسماله. يرى بوردو أنه لكي نفهم منطق أي ميدان من الميادين، لا بد من وضع تعريف لرأس المال (الاجتماعي أو الرمزي) الذي ينشط ضمن هذا الميدان. فالصحفيون العرب، بصفتهم ممثلين فاعلين، يمتلكون بالفعل شكلاً من أشكال السلطة (الرمزية أو الثقافية)[8] التي تؤثر في التطورات الجارية في المنطقة حالياً بشكل عام، وتتأثر بها.

يتبدى هذا الفصل على النحو التالي: سوف يتم تسليط الضوء على بعض المفهومات المفيدة التي وردت في نظرية الممارسة التي طرحها بوردو، وبعدها سيتم تقديم بعض القوائم المختارة والجديرة بالاهتمام. وهذه تتضمن إسقاط الضوء على الصراع الداخلي بين القنوات الإعلامية العربية القومية من أجل الإمساك بزمام السلطة في الميدان الإعلامي، خصوصاً في الإشكالية المتمثلة فيمن سيكون

راسم السياسات، ومن سيكون التابع؛ بالإضافة إلى بنية الهرمية التي تتشكل من اللاعبين في هذا الميدان. إضافة إلى ما تقدم، لا بد من الإشارة إلى أن بعض وسائل الإعلام الإخبارية الغربية كانت مصدراً للإلهام والتدريب؛ ومن ثَمَّ فإن من الواجب الاعتراف بأن الهرمية الداخلية في أوساط وسائل الإعلام الإخبارية العربية ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالممارسات التي استقتها تلك الأوساط من مصادر غربية ملهمة (أنجلو- أمريكية). وسيكون الدور الذي لعبته وسائل الإعلام الغربية في بناء هوية الصحفي العربي الحديث موضع بحث واستقصاء في الفصل السادس من هذا الكتاب.

حدود الميدان كما يراها بوردو

ترى باربي زيليزر[9] أن الصحفيين عبارة عن جماعة لها قواسم مهنية مشتركة تجمع بين أفرادها. إذ يمكن النظر إلى جماعة الصحفيين بالتوازي مع ما يمكن أن يطلق عليها جماعة الذاكرة، كما عرّفها بيلاه وآخرون[10]: "لا تنسى هذه الجماعة ماضيها. ولكي لا يطوي هذا الماضي النسيان، تكرس إحدى الجماعات جهود أفرادها من أجل إعادة رواية حكايتها، ومكونات سرديتها؛ وهي تقدم بذلك نماذج من الرجال والنساء الذين قاموا بتجسيد مفهوم الجماعة، وإعطائها معنى". وهكذا، يعتمد الصحفيون كجماعة، على بعضهم بعضاً اجتماعياً، ويتشاركون في ممارسات معينة تقوم بدور التعريف بجماعتهم، ورفع القيود عنها. ما يهم في هذا الصدد، هو التاريخ أو الماضي الذي يُعَدُّ حاسماً في تعريف مفهوم الجماعة. إن حضور

الصحفيين في قلب الأحداث يُعَدُّ مثالاً على الاستعارات التي تسهم في تأييد هذا الرأي، أو كما تصفها زيليزر بالقول: "إن الإتيان باستعارات مثل (شهود العيان) و(كلاب الحراسة) و(بحكم وجودنا هناك) بالإضافة إلى استعمال عبارات لها صفة الاكتشاف، أو (بحكم وجودنا في مكان الحدث)، يعني أن الصحفيين يؤسسون لعلامات فارقة لا تؤكد حضورهم وحسب، بل تدعم فكرة الأهمية الأيديولوجية لهذا الحضور أيضاً."[11] بعبارة أخرى، إن كون الصحفي شاهد عيان على أحداث تجري بعيداً عن مكان وجوده، في الوقت الذي يضع تلك الأحداث ضمن أطر زمنية مختلفة (الماضي والحاضر والمستقبل)، يسمح لهذا الصحفي بأن يساهم في دعم السلطة المهنية لهذه الجماعة، وتثبيت موقعها في المجتمع.

هذا الرأي يشبه رأي بوردو[12] في الصحافة كميدان مهني تنخرط فيه قوى مختلفة في صراع على السلطة. بما أن بوردو ينظر إلى الصحافة بصفتها ميداناً، فهو على حق عندما يشير إلى أن "مهنة الصحافة لا يمكن أن تقتصر على خيارات، أو على مزاجية هذا أو ذاك من المصورين أو الصحفيين[13]"، ومن ثَمَّ فإن الممارسات التي تحدث ضمن إطار هذا الميدان تحددها علاقات السلطة، وموقع كل واحد من هؤلاء الصحفيين.

تقدم النظرية الميدانية التي طرحها بوردو[14] إطاراً لدراسة الصحافة بوصفها ميداناً اجتماعياً يتسق مع الميادين الأخرى في المجتمع، وبوصفها وسيلة من وسائل الكشف عن "قواعد اللعبة" داخل

هـذه الجماعـة. تُعَدُّ مسـألة تحليـل توزيع السـلطات في أحـد الميادين مـن بـين أهم القضـايا التي تطرحها نظريـة بوردو. فوسـائل الإعلام الإخباريـة العربيـة مثلاً، يمكـن أن يتم تقديمها كنظـام هرمي يتألف من الصـحافة الجـادة مقابل الصـحافة الصـفراء، والمجلات مقابل الصـحف، والمحطـات العربيـة القوميـة مقابـل المحطـات الوطنية أو المحليـة، وهكذا. أما العناصـر الموجودة ضـمن النظام فتفصـل بينها حواجـز رمزيـة تشـكلها كمية "رأس المال" المخصـص لـكل واحد من هذه العناصـر. يوجد النظام الهرمي أيضـاً بين الصـحفيين أنفسهم؛ ويعكس سلطاتهم وقيمهم وانعكاساتهم المهنية والتحريرية والأكاديمية والرمزيـة. بهـذا المعنى، يمكـن اسـتخدام نظرية بـوردو الميدانية من أجـل الربط بين العوامـل الاجتماعية الكبرى وبـين العوامل التنظيمية الصـغرى في معرض تحليلها للصـحافة. تكمن قوتها في حقيقة أنها لا تعتمـد على متغير واحد فقـط كالملكية أو دور التكنولوجيا، على سـبيل المثال[15]. إن دراسة عملية انتقاء الأخبار على سبيل المثال، تعني مشاهدة عملية الاندماج بين السـمات الشخصـية والموقع البنيوي ضمن الميدان الصـحفي[16]. فالسـمات الشخصـية هي "نظـام مفتـوح للطبائع التي تخضع دائماً للتجارب، ومن ثَمَّ فإنها دائمة التأثر بها بطريقة تؤدي إما إلى إعادة تعزيز بُناها، أو تعديل هذه البنى"[17].

يمكن أخذ تجربة التلفزيون الفرنسي كواحد من الأمثلة على تطبيق النظرية الميدانية، حيث أظهرت التحاليل أنه "لا يخضع دائماً للأحكام التـي تطلقها الأخبار الواردة في الصـحافة المطبوعـة"[18]. المثال الثاني

عن هذا الموضوع يمكن استقاؤه من هوفدن[19] الذي أوضح أن تمييزاً جرى في الميدان الصحفي النرويجي بين الصحافة اليومية والصحافة الأسبوعية؛ وقد تم تعريفه بشكل أوضح كتمييز بين مشاركين في هذا الميدان "يستحقون الاحترام"، وآخرين "لا يستحقونه". إضافة إلى ذلك، ترتبط فكرة الموضوعية في عالم الصحافة بمعيار الاحترام، حيث يميل الصحفيون العاملون في الصحف الكبيرة الحجم إلى التمسك بمعايير راقية من الموضوعية والحيادية، بحيث يميزون أنفسهم عن الصحفيين العاملين في الصحف الصفراء[20].

المسألة المهمة في هذا السياق بالتحديد تتعلق بنسبة رأس المال الاقتصادي والثقافي المرتبط بهذه الجماعة المهنية من الصحفيين، والكيفية التي يمكن من خلالها استثمار رأس المال هذا في ميادين أخرى، كميدان السياسة مثلاً. ترك عدد من كبار الصحفيين العرب أمثال صالح القلاب من الأردن ومحمد حسنين هيكل من مصر، ميدان الصحافة من أجل العمل في السياسة. أعربت إحدى مذيعات التلفزيون المصري عن تذمرها من الظهور المتكرر للسياسيين في برنامجها؛ لأن ذلك جعل من هؤلاء السياسيين والمحللين السياسيين الذين تتم استضافتهم في البرامج التلفزيونية أكثر شهرة بكثير من مقدمي البرامج أنفسهم[21]. كما يلفت بينسون[22] النظر إلى تقلص هيبة الأكاديميين الفرنسيين الذين يكتبون مقالات في الصحافة؛ وهذا يتناقض مع الحال في البلدان العربية، حيث ينشر العديد من الأكاديميين العرب من الباحثين في مجال الإعلام أمثال عواطف

عبدالرحمن ومأمون فندي مقالات بصورة منتظمة في الصحف الوطنية والعربية القومية.

إضافة إلى ما تقدم، فإن الممارسات الصحفية المحلية والإقليمية تفرض نوعاً من التأثير في الميادين المحلية الأخرى سواء أكانت أدبية أو سياسية أو علمية أو دينية. فمثلاً، لا بد أن تكون الزيادة التي حصلت مؤخراً في حجم المساحة المكرسة للموضوعات الدينية في الصحف، أو البرامج الدينية في التلفزيون النتيجة المباشرة لهذه العلاقة المتداخلة بين الصحافة والميدان الديني؛ كما يمكن القول إن زيادة حجم المساحة المكرسة للموضوعات العلمية أو موضوعات النقد الأدبي في الصحافة العربية القومية يمكن أن تكون نتاجاً لتقاطع مشابه بين الصحافة من جهة، وبين العلوم والحقول الأدبية من جهة أخرى. كما أن هناك تنافساً واضحاً بين مختلف الوسائل الإعلامية الإلكترونية والمطبوعة. أحد الأنماط الشعبية السائدة على سبيل المثال يدعى (عمود الآلام)، وهو عمود ينشر في عدد يوم الجمعة في صحيفة الأهرام، ويقوم بتحريره عبد الوهاب معطي. أضحت لهذا العمود شعبية كبيرة لدرجة أنه تحول فيما بعد إلى برنامج تلفزيوني على القناة الفضائية المصرية، واستنسخته بعض القنوات الفضائية العربية التي تتنافس فيما بينها من أجل الفوز بحصة أكبر من عدد المشاهدين.

استناداً إلى نظرية بوردو، يعمل كل ميدان بحسب منطقه الخاص به، الذي يفصل ويربط بين الميادين الأخرى، ويتقاطع معها. يتم التمييز بين مشارك وآخر في كل واحد من هذه الميادين بحسب الرصيد

الخاص بكل واحد منهم سواء أكان اقتصادياً أو اجتماعياً أو ثقافياً، والذي يتفاوت في كميته من واحد لآخر. يعترف بوردو في معرض تبريره للتغيرات الاجتماعية داخل كل ميدان من ميادين المجتمع بالصراع الداخلي الناشب بين أعضاء هذه الميادين من أجل إعادة تحديد هذا الرصيد، وإعادة توزيعه فيما بينهم. وهكذا، فإن هؤلاء الأعضاء يأخذون على عاتقهم مهمة إعادة تصنيف العلاقات بين الميادين المختلفة وإعادة تنظيمها، وكذلك بين الأعضاء في الميدان نفسه، في محاولة دائمة منهم للتعرف على رأسمالهم وإضفاء صفة الشرعية عليه. تخضع الممارسات الصحفية العربية وراء الكواليس إلى جملة من القيود والضوابط التي تشمل الميدان برمته؛ وهذا الميدان يؤثر في الميادين الاجتماعية الأخرى ويتأثر بها.

يدخل الصحفيون بصفتهم ممثلين، في خضم علاقة جدلية داخل ميدان عملهم، ويتصرفون استناداً إلى معايير سماتهم الشخصية التي ترتبط بخلفياتهم الاجتماعية والثقافية، وبميولهم وقيمهم والصور النمطية الخاصة بهم. لقد تمتع الصحفيون بسلطات متنامية تجلت في الأدوار المتعددة التي كان عليهم القيام بها من أجل استنهاض جماهير شعوبهم وتعليم هذه الجماهير، خصوصاً في الدول النامية. وكما أن من المنطق القول إن للصحفيين العرب تأثيراً مهماً في آلية صناعة الرأي العام والتنمية في الشرق الأوسط، فإن من المهم القيام بتحليلات تستند إلى المواجهات الفعلية التي تمت مع الصحفيين العرب. هناك حاجة إلى التعامل مع الميدان الصحفي العربي بشكل تفصيلي، وذلك

مـن أجل إلقاء ضـوء جديـد على الرصـيد الثقـافي والاجتماعي الذي يتمتعـون به، وكذلـك من أجل إماطـة اللثام عن طريقـة فهمهم للدور المنـاط بهم فيمـا يتعلق بالتغـيرات والتحديـات التي تواجـه مهنتهم؛ ومـن ثَمَّ تقرير ما إذا كان هذا الفهم سيشـكل دعماً لمسـاهمة وسـائل الإعلام في عملية دمقرطة المنطقة، أو أنه سـيحد منها. يمكن لمثل هذه الأجندة البحثية الطموحة أن تكشـف أيضـاً عن الاختلافات الجنسوية داخل استوديوهات الأخبار من أجل الكشف عن تحديات محددة تواجه النساء الصحفيات.

يمكن البدء بتحليل طبيعة الميدان الصـحفي العربي بالحديث عن تأثير وسائل الإعلام الإخبارية العربية القومية في التغيرات الاجتماعية التي حلت بالمنطقة، وذلك من خلال البحث في المسـائل المحيطة بمبدأ محاسـبة وسـائل الإعلام الإخبارية العربية، وتقصي شرعية وجودها. أحياناً، تُعَدُّ بعض القنـوات الإخبارية العربية القومية كالجزيرة مثلاً، أنهـا منتديـات ديمقراطية جديدة بالنسـبة للمشـاهدين العرب؛ ومن هنا يفترض بأن لها تأثيراً ضـمنياً مهماً وحقيقياً في موضـوع دمقرطة المنطقـة. ولكن لا يُعرَف إلا أقـل القليل عن نوعية المنظمات التي تمثلها وسائل الإعلام هذه فيما يتعلق بالآتي:

- أساس شرعيتها.
- الكيفية التي بواسطتها يعلل مهنيو وسائل الإعلام أنفسهم السـبب وراء شـهرتهم إزاء القنوات الإعلامية التقليدية في وسائل الإعلام الغربي.

- درجة قربهم من مؤسسات المجتمع المدني وتأثيرهم في مثل هذه المؤسسات.
- كيفية توزيع السلطات داخلياً في منظمات وسائل الإعلام العربية القومية، والمدى الذي يمكن الذهاب إليه في اعتبار ذلك كله ممثلاً للجنسوية والأقليات.
- مدى تماشي أجندتهم مع حاجات مشاهديهم، خصوصاً الفقراء والمهمشين.

ناقشت سابقاً[23] كيف أن المحاولات التي جرت[24] من أجل تصنيف وسائل الإعلام الإخبارية العربية لم تأخذ في الحسبان التطورات الجديدة في المنطقة. فدور الصحفيين مثلاً، كما يقوّمه مهنيو الأخبار أنفسهم يمكن أن يتبدى على شكل المحرّك أو المعلم أو المخبر، هو مزيج من كل هذه الصفات. ومن ثَمَّ فمن المهم تحليل هذا الدور في ضوء سياقه الثقافي الفريد من نوعه.

تهدف الفقرات التالية من هذا الفصل إلى تقديم مؤشرات من أجل فهم المنطق السائد في الميدان الصحفي العربي، وذلك بالمقارنة بين اللاعبين العرب الأساسيين وبين اللاعبين العالميين في قنوات مثل CNN و BBC. قبل الخوض في خضم هذه العملية، من الضروري تحديد السياق السياسي والاجتماعي والثقافي للصحافة العربية بصفتها ميداناً، أي أدوات المنافسة وتجميع السلطات، والهرمية داخل هذا الميدان، بالإضافة إلى المحتوى الذي يُعَدُّ من أدوات الاختلاف.

يهدف المستوى الأول لهذا التحليل إلى القيام بتسكين الخطوط العامة لهذا الميدان؛ وسأقوم في القسم التالي من هذه المناقشة بجعل هذا التمرين مقتصراً على ما يطلق عليه وصف وسائل الإعلام (العربية القومية). ولكن من المهم أن أؤكد هنا أن البحث في مجال وسائل الإعلام العربية القومية يجب أن يتم دمجه بعملية تحليل وسائل الإعلام المحلية، والعلاقة التي تربط ما بين الطرفين؛ وهي مهمة تبدو في غاية الصعوبة بالنسبة إلى المؤسسة البحثية الغربية الحالية (انظر الفصول الرابع والخامس والسابع).

القومية العربية

عند مناقشة مسألة بروز الصحافة العربية بوصفها منتدى للخطاب العقلاني والسياسي، فإن من الصعوبة بمكان، الحديث بشكل عام عن صحافة "عربية". بدلاً من ذلك، سعت كل دولة عربية على حدة من أجل تطوير صحافتها وأنظمتها الإعلامية وخطابها الخاص بها بتسارع يختلف عن نظيره في الدول المجاورة. فبينما أطلقت مصر مثلاً، صحيفتها الأولى سنة 1880[25]، صدرت أول صحيفة في الكويت سنة 1928، وفي البحرين، سنة 1939[26]. بالإضافة إلى ذلك، لا تزال نسب الأمية متفاوتة بين بلد عربي وآخر. وقد ساهمت مشكلة الأمية في تعزيز هذا التفاوت بين الدول العربية؛ بالإضافة إلى صعوبة إطلاق محطة إعلامية، على الأقل في الماضي، مع الأخذ في الحسبان نوعية جمهور مثل هذه المحطة على الصعيد الإقليمي وليس فقط الوطني. لكن هناك سمة مشتركة تتجلى في الطريقة التي استُخدِمت فيها

وسائل الإعلام الوطنية كأدوات لتعزيز صورة "الجماعة الافتراضية" بين المجموعات السكانية المتنوعة. على سبيل المثال، قامت الحكومة السعودية بإطلاق البث التلفزيوني كبديل لمواطنيها عن مشاهدة البرامج الأجنبية، وركزت على مفهوم الانتماء إلى الجماعة بالرغم من علاقات المواطنين القبلية المختلفة[27].

في الواقع، إن حقيقة كون "الشرق الأوسط" كمصطلح بحد ذاته، قد تم فرضه على الإمبراطوريات الغربية في القرن التاسع عشر[28]، يُعَدُّ دليلاً قاطعاً على الكيفية التي فرضت فيها الحدود الجغرافية الجديدة (المفترضة) على العديد من الدول العربية بناء هوية عربية قومية، واستخدام وسائل الإعلام من أجل تحقيق هذا الهدف. وهكذا فقد تبين أن مهمة الفصل بين ما هو محلي وما هو إقليمي اللذان يشكلان جزءاً لا يتجزأ من مفهوم "القومية العربية"، هي مهمة صعبة المنال، خصوصاً أن ذلك المفهوم فرض نفسه في الكم الهائل من الخطابات التي تتفاوت بين المنشأ السياسي والإعلامي وبين الخطاب اليومي المستند إلى الثقافة الشعبية. شمل الميدان الإعلامي الإخباري عدداً من المؤسسات التي تتجه إلى مخاطبة الجمهور الإقليمي وليس المحلي؛ وهو توجه لم يولد مع ظهور القنوات الفضائية التي توشك على البدء بعملية البث، بل تعود في بداياتها إلى القرن التاسع عشر، وظهور ما أطلق عليه حينئذ الصحافة المهاجرة[29]، التي ساهمت في تشكيل جماعة قومية تكونت من الكتاب والصحفيين والجمهور. تبوأت وسائل الإعلام الإخبارية القومية موقعاً متميزاً على جدول أعمال البحوث الحاضرة

والمستقبلية، بسبب نجاحها في فرض المشروع السياسي المنافس الذي أطلق عليه وصف "القومية العربية" على المشهد الثقافي. اجتذبت وسائل الإعلام العربية القومية كماً متزايداً من الاهتمام من قبل الباحثين للأسباب التالية:

1 - هذه الوسائل الإعلامية لها جمهور كبير على امتداد رقعة البلدان العربية، وليست مقصورة على بلد واحد؛

2 - يمكن اعتبار هذه الوسائل الإعلامية مؤسسة لاتجاه مهني أو سياسي من بين المؤسسات الإعلامية الوطنية أو الإقليمية؛ لأنها تخاطب جيلاً من الإعلاميين الشباب من ذوي المستويات العليا[30]؛

3 - أظهرت السنوات القليلة الماضية أن المستثمرين العرب يفضلون إنشاء مؤسسات إعلامية إقليمية بدلاً من المؤسسات الوطنية، ومن ثَمَّ؛ فإن هؤلاء يتوجهون نحو قاعدة جماهيرية أعرض بكثير ليس فقط في الشرق الأوسط، وإنما في أوروبا أيضاً؛

4 - تقوم وسائل الإعلام العربية القومية بدور وسائل إعلام الشتات بالنسبة للمهاجرين العرب في أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية والبلدان الغربية عموماً.

استطاعت هذه القنوات القومية العربية كما يقول فيصل قاسم، وهو أحد كبار مقدمي البرامج في قناة الجزيرة "سحب البساط من تحت

القنوات المحلية والأرضية، وهي في حد ذاتها تشكل نوعاً من التعريب؛ ومن ثَمَّ الوحدة"[31]. وهكذا، استطاعت وسائل الإعلام الإخبارية العربية القومية تحقيق هدف سياسي كان مقدراً له الفشل فيما مضى.

بدأت حركة الهوية العربية القومية بالتشكل في القرن الثامن عشر[32]، وتنامت وازدهرت في البلدان العربية خصوصاً في خمسينيات القرن العشرين. لقد كان الرئيس المصري الأسبق جمال عبد الناصر هو من روّج بشكل فعال للقومية العربية، التي أصبحت تعرف فيما بعد، بالناصرية؛ وأقام وحدة بين مصر وسوريا سنة 1958، وسميت الدولة الوليدة الجمهورية العربية المتحدة[33]. كانت فكرة القومية العربية مثار شك في ذلك الوقت بين المصريين، كما اعترف بذلك عبدالناصر نفسه حيث قال: "يبدو أن فكرة القومية العربية جديدة بالنسبة لهم"[34]. وكان ما أعلن عن أهداف الوحدة بين مصر وسوريا يتضمن تحقيق الديمقراطية والعدالة الاجتماعية والحفاظ على التضامن[35].

اتخذت الدعوة إلى الوحدة العربية صفة "الشعبية"[36] التي اعتبرت المواطنين العرب جزءاً من أمة أكبر إلى حين وقوع حرب 1967 (بين إسرائيل من جهة ومصر وسوريا والأردن من جهة أخرى، التي انتهت باستيلاء إسرائيل على قطاع غزة وشبه جزيرة سيناء والضفة الغربية وهضبة الجولان). كانت الهزيمة في تلك الحرب بمنزلة ضربة قاصمة لفكرة الوحدة العربية[37].

استخدمت وسائل الإعلام إبان حرب 1967 كوسيلة من وسائل تجييش الشعور القومي العربي بين الجماهير العربية. وكانت إذاعة

صوت العرب على سبيل المثال، تبث أخباراً كاذبة حول الهزيمة التي ألحقها العرب بإسرائيل؛ لكن الجماهير اكتشفت واقع هزيمة العرب عبر وسائل الإعلام الأجنبية مثل محطة هيئة الإذاعة البريطانية[38]. وكان الكشف عن حقيقة ما جرى في أثناء تلك الحرب قد أدى إلى جدال حامي الوطيس بين وسائل الإعلام التقليدية، وكان ذلك الجدال بمنزلة "صمام أمان من أجل التنفيس عن الضغط والكبت الشعبي، بالإضافة إلى كونه وسيلة لامتصاص الصراعات التي نشأت بسبب تلك الهزيمة"[39]. بدأ الصحفيون حينها يمارسون دوراً جديداً، حيث تحولوا إلى ناطقين باسم الأنظمة السياسية الموجودة. ينتمي معظم كتاب الأعمدة الصحفية المشهورين إلى النخبة ذات النفوذ. قيل على سبيل المثال، إن أحمد سعيد الذي كان مديراً لإذاعة صوت العرب كان مقرباً جداً من جمال عبد الناصر[40]، كما كان رئيس تحرير صحيفة الأهرام الأسبق محمد حسنين هيكل على علاقة جيدة بعبد الناصر الذي كان يستشير هيكل حول مختلف القضايا السياسية. ساعدته العلاقة الوطيدة مع عبد الناصر على تخطي أي مخاطر كان يمكن أن تنجم عن انتقاده العلني للحكومة في عموده الصحفي، وهو امتياز لم يكن يتمتع به العديد من العاملين في ميدان الصحافة[41].

لكن فكرة القومية العربية كأيديولوجية وطنية استمرت في نهاية المطاف، ولكن ليس على نطاق الفعل، بل كلغة إنشائية. وصف بسام طيبي المشهد على الشكل التالي: "لا بد لأي سياسي عربي من استخدام الممر الإجباري المتمثل في اللغة الإنشائية التي تتحدث عن الوحدة

العربيــة التي تُعَدُّ الجامعــة العربية إحدى أدواتها؛ لكن الحقيقة هي أن معظم السياسـيين العـرب قاموا بتقويض دعائـم أي فعل قد يؤدي إلى تحقيق هذا الهدف"[42].

وكانت الضــربة الموجعة التي تلقتها الوحدة العربية قد وجهتها لها مصــر من خلال توقيعها على معاهدة السلام مع إسرائيل سنة 1979 (معاهدة كامب ديفيد)، التي أدت إلى توتر شـديد بين مصــر والعديد مــن الــدول العربيــة الأخرى التي عارضــت الســلام مع إســرائيل. تم تعليق عضــوية مصــر في الجامعة العربية لهذا السبب، لكنها استعادت عضـويتها في الجامعــة ســنة 1989 عندما عاد مقر هــذه الجامعة إلى القاهرة بعد أن استضــافته تونس بصفة مؤقتة. كما أن مصر استثنيت من نظام الأقمار الصناعية الجديد، عربسات، خلال فترة الثمانينات من القرن العشــرين[43]، وهو ما دفع مصــر إلى إطلاق قناتها الفضائية الخاصــة بها وهي القناة الفضائية المصــرية. لكن دور وسائل الإعلام كأداة تعبوية بقي مستمراً، كما أن القناة الفضائية المصرية استخدمت في أثناء حرب الخليج الثانية سنة 1991 من أجل تقديم وجبات إخبارية للجنود المصــريين المرابطــين في منطقة الخليج شــكلت بديلاً لما كانت تقدمه وسائل الإعلام العراقية[44].

من الندرة إلى الوفرة

يتفــق الباحثــون[45] على اعتبــار أن حــرب الخليج التي وقعت ســنة 1991 ســرّعت في إجــراء عملية إصــلاح لوســائل الإعــلام في المنطقة

العربية. كانت الحرب في الواقع علامة على ما اتفق على تسميته بعامل محطة CNN: فالجمهور العربي الذي كان بإمكانه مشاهدة هذه المحطة، تابع مجريات الحرب إبان وقوعها بالرغم من محاولات بعض وسائل الإعلام العربية التقليدية إخفاء حقيقة هذه الحرب؛ ناهيك عن مناقشة أسباب اندلاعها. على العكس من ذلك، اعتبرت الحرب بمنزلة فوضى أخلاقية خصوصاً أن الرئيس الأمريكي الأسبق جورج بوش (الأب) كان قد استخدم عبارة "اغتصاب الكويت"[46] من أجل تبرير شن تلك الحرب. كما استخدم فنانون عرب مثل المطرب الكويتي عبد الله الرويشد استعارات حمّل فيها القدر المشؤوم مسؤولية هجوم الأخ (العراق) على أخيه (الكويت)، مؤكداً في الوقت نفسه العلاقات الأخوية بين الدول العربية.

بعد انتهاء الحرب، شهد المشهد الإعلامي العربي فورة في عدد القنوات الفضائية التي تنافست فيما بينها من أجل تقديم أنماط جديدة من البرامج مثل المناظرات التلفزيونية والنقل المباشر للأخبار تماماً كما كانت محطة CNN تقوم به[47]، من الطبيعي أن يكون لمثل هذه القنوات الجديدة تأثير في تطور الصحافة الوطنية والقومية. فمن حيث المحتوى، صدر المزيد من الصحف والمجلات المتخصصة. بدأت مؤسسة دار أخبار اليوم المصرية للنشر بإصدار صحيفة متخصصة في أخبار الجرائم، وأخرى متخصصة في أخبار النجوم والفنانين، وصحيفة ثالثة تعنى بشؤون الأدب. كما ازداد حجم هذه الصحف بصورة كبيرة: فقد ازداد معدل عدد الصفحات في الصحيفة اليومية

الـذي كان يتراوح بين أربع و سـت صـفحات في الأربعينيات من القرن العشرين إلى ثماني أو عشر صفحات خلال الثمانينيات[48]، ثم تضاعف هـذا العدد في التسـعينيات إلى أن أصـبح يتراوح بين عشـرين واثنتين وعشـرين صـفحة. كمـا ازداد معـدل الأخبـار الخفيفة في الصـحافة العربيـة، علـى الرغم مـن أن ذلك أتـى متأخراً جداً عـن الوقت الذي بدأت تظهر فيه مثل هذه الأخبار في وسـائل الإعلام الإخبارية الغربية. كمـا تم إعطـاء أهميـة متزايدة للموضـوعات الإنسـانية في الصـحف العربية القومية مثل صـحيفتي (الحياة) و(الشـرق الأوسط). تصدر صحيفة الحياة اللبنانية – السعودية، ملاحق أسبوعية بصورة منتظمة موجهة إلى شـرائح مختلفة من القراء: القراء الشباب ورجال الأعمال والسياحة – كما أن هذا النوع من الأخبار أصبح ضمن إطار الصحيفة اليومية نفسها.

تُعَدُّ الصـحافة العربية حالياً الوسـيط الذي يصـل القارئ العربي بالقضـايا العالميـة. وقد انعكس ذلـك على الجانب المهني للصـحفيين العـرب، وكذلك على المردود الذي يقدمونه. يدعى الصـحفيون العرب المشـهورون بصـورة منتظمة إلى برامج حوارية واسـعة الانتشـار على القنـوات الفضـائية العربية، على المنوال نفسـه الـذي كان يدعى على أساسـه الإعلاميون العاملون في التلفزيون والإذاعة لإجراء لقاءات في الصـحافة المكتوبـة[49]. وقد سـاهم ذلك في تعزيز الـدور الجديد الذي يضطلع به الصـحفيون المشهورون في الفضاء السياسي؛ وهذا يعني أن هؤلاء تحولوا إلى خبراء سياسيين. إضافة إلى ذلك، هناك اتجاه جديد

في القنـوات الإخبارية العربية يتمثل في الرغبة في القيام بتقويم لأدائها الصـحفي، من خلال دعوة صـحفيين عاملين في مجال الأخبار للتعليق على العمل الذي تقوم به هذه القنوات والصعوبات التي تواجهها[50].

هناك عوامل عدة سـاهمت في ازدياد وتيرة التغيرات التي حصلت في المشـهد الإعلامـي العربي خلال العقد الماضـي[51]. يتمثـل أحد هذه العوامل في ظهور جيل جديد من الصـحفيين العرب الذين تلقوا الجزء الأكـبر من تعليمهـم وتدريبهم في مؤسسـات إعلامية غربيـة، أو أنهم تعلموا في مدارس وجامعات ذات توجه غربي في بلدانهم الأصـلية. يُعَدُّ هذا الجيل من الصـحفيين وسيطاً مهماً في عملية تقديم أنماط جديدة مثل المناظرات السياسـية والبرامج الحوارية، بالإضـافة إلى استعمال تقنيات رفيعة المسـتوى عند إجراء المقابلات لم تكن تمارَس سـابقاً في وسائل الإعلام العربية[52].

العامل الآخر هو المنافسـة الخارجية التي تواجهها وسائل الإعلام العربية حاليـاً. أطلقت محطة CNN موقعاً إليكترونيـاً باللغة العربية وذلك بعد الجماهيرية التي حققتها في أعقاب حرب الخليج سنة 1991، وتبعتهـا في ذلـك قنـوات إعلامية أخـرى. تم تدشـين محطة CNBC Arabia على سـبيل المثـال، سـنة 2003[53]. أظهـرت التحليلات حول جمهور المشاهدين التي أجريت بين المستمعين العرب خلال الثمانينيات أن هؤلاء يفضـلون الاستماع إلى برامج الإذاعات الأجنبية[54]، ولا حاجة إلى القـول إن هذه المحطات نفسـها كانت مصـدر الأخبار خلال حرب الخليج سنة 1991. يمكن لهذه المنافسة أن تتخذ بعداً أشمل عندما تطلق

محطة BBC قناتها العربية بحلول سنة 2007. حدثت بعض التغيرات المهمة على الصعيد الاجتماعي، وكان على رأس هذه التغيرات أهمية اللغة الإنجليزية في سوق العمل العربية. فمع ازدياد أعداد الشركات الأجنبية التي أسست لنفسها حضوراً في العديد من البلدان العربية، بدأت اللغة الإنجليزية تلعب دوراً مهماً بوصفها لغة مشتركة جديدة ضمن أسواق العمل العربية. وكان من بين النتائج الطبيعية لذلك أن شرائح أكبر من السكان يمكن أن تتابع وسائل الإعلام الإخبارية باللغة الإنجليزية، ولو بقليل من الصعوبة. مع ذلك، اعتاد المشاهدون العرب هذه الطريقة، ليس فقط فيما يتعلق بالمصطلحات الإخبارية ولكن بتقاليد المناظرات التي تتبعها وسائل الإعلام الأجنبية أيضاً.

وهكذا، يمكن للمرء القول إن شريحة كبرى من المحطات الإعلامية العربية أقامت بشكل أو بآخر، علاقة مستقرة بين النخب السياسية والجمهور إلى حين اندلاع حرب الخليج سنة 1991. إن سهولة الوصول المتزايدة إلى وسائل الإعلام العالمية (مثل محطتي CNN و BBC) منذ ذلك التاريخ نتج عنها ليس فقط وجبات إعلامية أكثر تنوعاً، بل أدت إلى تغير في الممارسات المهنية. وهكذا ظهرت صحف للأحزاب المعارضة في مصر متحدية فكر النظام الحالي. أما الفوضى التي تسببت فيها العمليات العسكرية في العراق، فقد عززت بشكل أكبر، الفروق بين الجماعات الدينية والعرقية، حيث أعلنت كل واحدة من هذه الجماعات عن موقف أيديولوجي يختلف عن الآخر. فقد تضاعفت على سبيل المثال، أعداد الصحف منذ بداية الحرب[55]، بالرغم من ادعاء جميع تلك الصحف بأنها تنتمي إلى النسيج الوطني نفسه.

إذا كانت النزعة التجارية المتزايدة كما يزعم هابيرماس[56]، وكذلك بحاثة آخرون[57] قد حولت الصحافة إلى وسيلة ارتباط بين المعلنين والزبائن، بدلاً من أن تكون حلقة وصل بين السياسيين والمواطنين، فقد نتج عن ذلك في السياق العربي تغير في المضمون، ترافق مع تزايد ضئيل في كم الأخبار الخفيفة، بالإضافة إلى تقديم أخبار الخصوم السياسيين؛ كالصحافة الحزبية في مصر مثلاً. وبالرغم من الاختلاف في المظاهر الجنسوية والطبقية والدينية والعرقية، فإن بعض القنوات الإعلامية الإقليمية تحاول مخاطبة أوسع قاعدة جمهور ممكنة "كجماعة افتراضية". وهكذا، فقد قامت بتحديد وزنها الأيديولوجي بين الصحفيين العرب الذين يرون أنها تشكل جزءاً من الدور المناط بهم[58]. وهكذا، فقد أصبحت القومية العربية "نقطة تسويق فريدة من نوعها،" أي استراتيجية تسويق تهدف إلى الإفادة من ازدياد حصتها التسويقية[59].

تتجلى إحدى سمات القومية العربية كما يصفها أحد مقدمي برامج القناة، غسان بن جدو[60]، في عدد العرب الذين ينتمون إلى دول مختلفة، ويعملون معاً في هذه القنوات، بدلاً من قصر هؤلاء العاملين على منطقة المشرق العربي (أو على مواطني دول تقع إلى الشرق من مصر مثل لبنان والأردن وسوريا وفلسطين، بالإضافة إلى مصر والعراق أيضاً). لكن مقدمي البرامج هؤلاء، الذين استطاعوا أن يحققوا لأنفسهم شهرة واسعة في القنوات الفضائية، هم في الغالب من أصول مشرقية، كما تقول بعض مقدمات البرامج المغربيات. فالمذيعة

المغربية، فاطمة البارودي، على سبيل المثال، تقول إن المغاربة يشكلون أقلية في هذه القنوات التي تطغى عليها الوجوه اللبنانية والمصرية. يعود هذا في رأيها إلى "العلاقات الشخصية" كطريق رئيسة لإيجاد موطئ قدم في هذا الميدان التنافسي[61]. تُرجع إحدى المذيعات المغربيات وهي فاطمة النوال سبب محدودية أعداد المذيعين المغاربة على المحطات العربية القومية إلى حقيقة أن معظم هذه القنوات تبث من لبنان والإمارات ومصر[62]. إضافة إلى ما تقدم، تلعب اللغة دوراً مهماً في تسهيل عملية الحصول على هذه الوظيفة أو عرقلتها، باعتبار أن اللهجة المغربية تُعَدُّ مختلفة بشكل واضح عن اللهجات السائدة في المشرق العربي، ومن ثَمَّ فهي غير مفهومة بالمقارنة باللهجتين المحليتين المصرية واللبنانية. إضافة إلى ما تقدم، تشير دراسة أجريت مؤخراً حول العلاقة بين اللغة (اللهجة العامية) والهوية على النساء المغربيات في دولة الإمارات العربية المتحدة[63] أن الصورة النمطية عن النساء المغربيات هي أن الواحدة منهن تُعَدُّ سهلة المنال، وأنهن "خاطفات الرجال"، وهذه الصورة ترتبط بنزوع في عقديّ الثمانينيات والتسعينيات باتجاه استحضار نساء مغربيات إلى البلاد كزوجات ثانية أو حتى كعشيقات.

باختصار، نستطيع القول إن القنوات الإخبارية الفضائية (الجديدة) بالإضافة إلى الصحف العربية القومية، ساهمت في خلق عصر "الوفرة" الجديد[64]، وإنها أدت دوراً جديداً بالمقارنة بالعصر السابق، حيث كانت "الوفرة" عادة أجنبية ومستوردة. الهدف من هذه

القنـوات هو اجتذاب هـذا الكم الكبـير من المشـاهدين داخل منطقة الشـرق الأوسـط وخارجها، بحيث تربط فيما بينهم، وفي الوقت نفسه، تبقي على مسـافة فيما بينهم. وهكذا، يمكن القول إن العصـر الجديد "يقـدم خيـاراً طوعياً للاندماج الاجتماعي، أي أن يكون المشـاهدون مجتمعين ومنفصـلين في الوقت ذاته"[65]. أظهر استطلاع أجري مؤخراً علـى عينة من المواطنين العرب[66] أن نسـبة كبيرة مـن هؤلاء يتعاطفون مع القضـايا العربية العامة، بسـبب انتشـار وسـائل الإعـلام العربية القومية، خصوصـاً القنوات الفضـائية؛ لكن ما يربـو على 40 في المائة من المستطَلعَة آراؤهم أقروا بالخلافات المتزايدة بين العرب. يعود هذا، كمـا يقول مارك لينش[67]، إلى أن "هذا يعود إلى تغير مهم واسـتثنائي في الطريقـة التي ينظـر فيها هذا الجمهور الجديـد إلى مفهوم الهوية العربيـة"، وهـو بذلك يشـير إلى الإجماع الذي يسـلم بقضـايا يَعُدُّها عربية بامتياز مثل قضـيتي فلسطين والعراق، بينما تنحصر الخلافات في الأسلوب الذي يجب اتباعه من أجل التعامل مع هاتين القضيتين.

إلا أن مـا أود التأكيـد عليه هنا هو أن السـبب في هذا التباين ليس السياسـة أو التغطيـة الإعلامية؛ فبدلاً من ذلك، لا بـد للمرء أن ينظر إلى التغيـير في المشـهد الإعلامي العربي ككل من أجل كشـف التقاطع بـين الأنمـاط الجـادة (كالأخبـار والمناظـرات السياسـية) والأنماط الترفيهية (كالبرامج الحوارية الشـعبية والمسلسلات والأفلام). أشير هنـا بالتحديـد إلى حقيقـة أن التغطية الإخبارية في كل من الصـحف القوميـة العربية والوطنية تميل إلى التركيز على السياسـة الخارجية،

ومن ثَمَّ على قضايا تتعلق بالهم المشترك المتمثل في الصراع الفلسطيني الإسرائيلي. مع ذلك، من المهم أن نتذكر أن الأخبار تحتل مساحة ضئيلة من مدة البث في العديد من هذه القنوات الفضائية؛ حتى القنوات الإخبارية كالجزيرة مثلاً، عليها أن تدخل في مجال المنافسة مع أعداد متزايدة من القنوات الفضائية المختلفة التي تبث مسلسلات تلفزيونية تقوم بإنتاجها دول عربية مختلفة بلهجات محلية تتبع الدولة المنتجة. وهكذا، فإذا كانت الأخبار تتعلق بالقضايا "المشتركة"، وتبث باللغة العربية الفصحى، فإن أخبار المنوعات بالمقابل تبث باللهجات العربية المختلفة والمتنوعة، وتركز على موضوعات وهموم محلية. بعبارة أخرى، تتجسد العلاقة المتناقضة مع "الهوية القومية العربية" في نزوع المشاهدين باتجاه التأرجح بين ما هو عام وشامل (جملة القضايا العامة، واللغة التي يقال إنها تشدهم إلى بعضهم بعضاً) وما هو خاص ومحلي (القضايا المحلية التي يتم الحديث عنها بلهجات مختلفة)، وهو ما يؤدي إلى نوع من الإحساس الجمعي القومي المشترك، وفي الوقت نفسه، الإحساس بالهوية الوطنية المختلفة.

تبدّى هذا الأسلوب المتناقض من القومية العربية بشكل أكثر وضوحاً في المواقف التي اتخذتها الجماهير العربية والرياضيون العرب المشاركون في دورات الألعاب العربية[68]. انطلقت دورة الألعاب العربية سنة 1953 بوصفها رمزاً من رموز الوحدة الثقافية بين الشعوب العربية؛ ولكن المسابقات التي أقيمت مؤخراً، كتلك التي نظمت في الأردن سنة 1999 تسببت في تأجيج المشاعر الوطنية لدى الجماهير واللاعبين على

حد سـواء. إذاً، فالألعاب الرياضية، إضافة إلى مشروعات أيديولوجية أخرى تزيد من حدة التوتر بين الشـعور بالتضامن الوطني وبين الشعور بالتضـامن الإقليمي العربي[69]. يقدم كريدي[70] نموذجاً آخر لهذا التوتر في معرض تحليله لبرامج الواقع التي تبثها الفضائيات العربية القومية عندما أدى إقصـاء أحد المتسابقين اللبنانيين في برنامج الواقع المسمى (برنامج سوبر سـتار) إلى أعمال شغب ومظاهرات في مناطق مختلفة من بيروت؛ لأن شـكوكاً ثارت حينها حول دور سـوريا في هذا الموضـوع، وأنها كانت وراء عملية الإقصـاء من أجل فسـح المجال أمام المتسـابقة السـورية في الدور نصـف النهائي. لقد دفعت الشعبية الهائلة لمثل هذه البرامج، والتأثير الذي تحدثه في تأجيج المشاعر الوطنية بين الجماهير العربية، لدرجة أنه حتى الناشـطين السياسيين في حركة حماس مثلاً، حاولوا إقناع الفلسطينيين بالعدول عن متابعة مثل هذه البرامج، داعية إياهـم إلى أن يكونـوا "أبطالاً حقيقيين" ومقاتلين بـدلاً من أن يتحولوا إلى "مطربين ودعاة إلى الفساد"[71].

الهرمية الداخلية

يبدو أن الدراسات السابقة[72] تعاملت مع قضية القومية العربية من باب تحصـيل الحاصل، ومن دون أن تضع هذا الأسلوب المتناقض حول الهوية المشتركة موضـع تساؤل. تتجاهل هذه الدراسات نقاشاً مهماً له علاقة باللغة والهوية، وهو نقاش اسـتمر لقرون عدة. يشـير سليمان[73] بإيجـاز بليـغ إلى الدور الرمزي الـذي تقوم به اللغة في تشـكيل الهوية الوطنية في الشـرق الأوسـط، كمـا يقدم تحليله دليلاً على نهضـة هذه

الصحافة العربية الحديثة

الروابـط خـلال القرنين الماضـيين. يكرس قنديل[74] على سـبيل المثال، كتابـاً بأكملـه لتقـديم رؤيته التي تقضـي بـأن الهوية المصـرية واللغة المصـرية مختلفتان بشكل لافت، ومن ثَمَّ لا يمكن لهما أن تنضويا تحت مظلة "العرب" الشـاملة؛ التي تشـير بحسـب رأيه إلى هوية فرضـتها القوى الاستعمارية السـابقة، وليست لها أي قيمة تاريخية أو ثقافية. لا يجوز التقليل من أهمية العلاقة الذكية بين اللغة والهوية ضـمن السياق الإعلامـي؛ لأن هـذه العلاقـة يمكن أن تثبـت بأن لها شـأنها في مجال التحليلات التجريبية للصـور النصـية، كما في الميدان ذي الصـلة بين المشاهدين العرب أو الصحفيين؛ كتأثير استعمال اللغة العربية المكتوبة (أي الفصـحى) مثلاً، في حقل الأخبار وبرامج قضـايا الساعة، مقابل اسـتعمال اللهجات المختلفة في تقديم برامج المنوعات، وتأثير ذلك كله في قضـية تعزيـز الهوية العربية المشـتركة مقابل إضـعاف هذه الهوية (انظر أيضـاً المناقشـة حول دور اللغة العربية الفصـحى، في الفصـل الثالث من هذا الكتاب).

اتضح للقادة العرب المضمون السياسي لتعزيز هذه الهوية القومية: بإمكان هذه الهوية القومية أن تعطي المنطقة ثقلاً سياسياً أكبر بواسطة المسـاعدة على قيام كيان سياسي واحد بدلاً من كيانات عديدة لا يتمتع الواحـد منهـا إلا بسـلطات محـدودة، إلا أن صـراعاً داخليـاً من أجل الحصـول على السلطة السياسية يفرض نفسه بقوة بين الدول العربية؛ فقد نشـب صـراع في الجامعـة العربية على سـبيل المثـال، وأفرز هذا الصراع عقبات في وجه الاتفاق على سياسة موحدة حول الاتصالات[75].

ازدادت حدة هذا الصراع في الحلبة الثقافية الإعلامية بالقدر الذي انخرطت فيه المحطات الإخبارية القومية في خضم الصراع الداخلي من أجل الحصول على موطئ قدم يمكنها من وضع أجندة تتحلى بالمصداقية. تحدد وسائل الإعلام من خلال ذلك؛ أو ربما تعيد تحديد مفهوم العروبة على سبيل المثال، والقضايا التي تجب مناقشتها بصفتها قضايا قومية بالأساس، أو رسم صورة للعرب ليس فقط "كجماعة بحد ذاتها" ولكن أيضاً "كجماعة لذاتها"[76]. يشير هذا إلى تعريف متفرع إلى فرعين، داخلي وخارجي: فمن ناحية، يمثل الفرع الأول هوية انتماء إلى جماعة معينة (جماعة لذاتها)، ومن ناحية أخرى، يمثل قيام الآخرين بتحديد هذا الانتماء من الخارج (جماعة بحد ذاتها).

يمكن أن تشكل عملية تحديد المؤشرات الرئيسة لهذه الهوية الجامعة المتوضعة ضمن معايير الهرمية الداخلية (للاعبين الداخليين في المشهد الإقليمي) إضافة إلى الهرمية الخارجية (الهيئة التي يرى ممثلو القومية العربية أنفسهم مقابل اللاعبين الإعلاميين الدوليين مثل محطة CNN) نقطة انطلاق للبحث في مجال الميدان الصحفي العربي القومي. ومع الأخذ في الحسبان طبيعة المحطات الإعلامية العربية القومية التي تتجلى في مخاطبتها لمشاهدين على الصعيد الإقليمي (وحتى العالمي) سواء أكانوا مشاهدين من داخل المنطقة نفسها، أو من جماعات الشتات، فإن من المفيد القيام بتحليل هذه الهرمية في ضوء حقيقة أن المحطات الإعلامية العربية هي محطات لا مركزية، حيث إن بعضها تبث من داخل مدن إعلامية تم إنشاؤها

حديثاً (في مصر والأردن والإمارات)، بينما بعضها الآخر يبث من خارج المنطقة (في لندن).

يؤكد بينسون[77] الحاجة إلى تسكين الميدان الصحفي ليس فقط على المستوى الوطني، وإنما على المستوى العالمي أيضاً. يشكل الصحفيون في واقع الأمر عصبة من الشخصيات ذات الأبعاد العالمية، كما يشرح لنا هانيرز في حال المراسلين الأجانب الذين يظهرون "وعياً وتقديراً لمبدأ التنوع في الجوانب الفكرية، وطرائق الحياة، والمنتجات الإنسانية، ورؤيةً حول تطور مهارات التعامل مع هذا التنوع"[78]. ونظراً إلى الخصوصية التي تتصف بها طبيعة عمل الصحفيين، فإن الصحفيين الإخباريين عالميون بامتياز؛ ذلك أنهم منخرطون دائماً في عملية مستمرة من التفسير واستخلاص المعاني عن بعد[79].

إن رؤية الميدان الصحفي العربي ضمن سياق وسائل الإعلام الإخبارية العالمية تعني تفكيك الوزن الذي تتمتع به وسائل إعلام عالمية في هذا المجال مثل محطتيْ CNN و BBC، والتأكد فيما إذا كانت مثل هذه الوسائل الإعلامية العالمية تصلح لأن تكون نموذجاً يجب احتذاؤه. هل من الممكن أن يرى الصحفيون العرب على سبيل المثال، في الأخبار السياسية الأمريكية ما يمكن اعتباره مكوناً مهماً في الوجبة الإخبارية اليومية، متقمصين في ذلك اهتمام مشاهديهم في مثل هذا النوع من الأخبار؟[80] إذا كانت هذه هي الحال، فإن نموذج الاستهلاك الإعلامي بين الصحفيين العرب يجب أن يعكس ذلك؛ وهذا يستدعي قراءة صحف عالمية مثل نيويورك تايمز أو مشاهدة محطة CNN بصورة منتظمة. كما سيظهر ذلك من خلال تطور نمط الأخبار[81].

كان لبعض المحطات الإعلامية مثل CNN و BBC تأثير في الأجندة الإخبارية في وسائل الإعلام الإخبارية الوطنية في كل أنحاء العالم (انظر الفصل السادس). كما اجتذبت هذه المحطات كماً كبيراً من المشاهدين من المواطنين العرب خصوصاً بين عقديّ الخمسينيات والتسعينيات من القرن العشرين، أو في الفترة التي سبقت إطلاق القنوات الإخبارية الفضائية[82]. فوق هذا وذاك، فبالإضافة إلى كون هذه المحطات بمنزلة مصادر لوسائل إعلامية إخبارية وطنية وإقليمية، فإن وسائل الإعلام العالمية هذه ساعدت على خلق ثورة في المحتوى الإعلامي للقنوات العربية. على سبيل المثال، أعلنت ياسمين عبد الله، (المذيعة في القناة الفضائية المصرية) أن ختان الإناث أصبح موضوعاً يتم تداوله في القنوات المصرية فقط بعد أن بثت محطة CNN برنامجاً حول هذا الموضوع. أصبح من الضروري بالنسبة لوسائل الإعلام المصرية (والحكومة المصرية) أن تتحرك إزاء مثل هذه المناقشات المطروحة[83].

يتمتع كل لاعب في المشهد الإعلامي ببعض السلطة التي يحدد حجمها الثقل السياسي والاقتصادي الذي تتمتع به الدولة المضيفة أو الجهة المالكة لهذه الوسيلة الإعلامية أو تلك. استطاعت الصحف العربية القومية الصادرة خارج منطقة الشرق الأوسط أن تحجز لنفسها مكاناً في برامج عرض الصحف في القنوات العربية. فالقسم العربي لمحطة BBC على سبيل المثال، يستشهد عادة بما تنشره الصحف العربية الأربع الرئيسة (الحياة والشرق الأوسط والقدس العربي والأهرام) في استعراضه اليومي للصحافة العربية. كما أن الملاحق التلفزيونية

في الصحافة العربية[84] تشير إلى الثقل الذي يمثله التلفزيون في المشهد الإعلامي العربي. يمكن للتحليل المستقبلي أن يوضح فيما إذا كان قد نتج عن مثل هذه العلاقة بالتالي، تطور في النمط الإخباري. فالأخبار التلفزيونية تستند في العادة إلى الصورة بالإضافة إلى "الشهادات" المختلفة[85] من الناس العاديين ومن المسؤولين على حد سواء؛ وهو ما يوضح الاختلاف بين السمات الصحفية النمطية ونظيراتها التلفزيونية. ولكن هل يمكن للاعتماد المتبادل والمتزايد فيما بين وسائل الإعلام أن يؤدي إلى حجب هذه الاختلافات عن طريق زيادة كمية الصور في الصحف، ومن ثَمَّ تعزيز دور المراسلين الصحفيين كشهود عيان، أو عرض المواطنين العاديين كمصادر للأخبار التي يقدمونها؟

باختصار، إن السلطة السياسية التي تتمتع بها كل دولة عربية على حدة، والتي تقرر حجم الهرمية الداخلية في الميدان السياسي الإقليمي، تبدو كأنها تنعكس على المشهد الإعلامي العربي القومي. فهذه القنوات الفضائية تظهر كأنها ملتزمة بسياسة عدم التدخل في القضايا الداخلية للبلدان العربية[86]، خصوصاً تلك التي لها علاقة بالمحرمات الاجتماعية. لكن المحرمات السياسية التي تتم مناقشتها على هذه القنوات تبدو متسقة مع حجم كل دول عربية على حدة (وعلى وزنها السياسي)، وهو السبب الذي يستعمله بعض المعلقين في معرض تبريريهم لما تقوم به قناة الجزيرة من تجنب الخوض في المشكلات التي تعانيها الدولة المضيفة قطر[87]. يحذر أحد المذيعين العاملين في مثل هذه القنوات من أن مثل هذه السياسة سوف تؤدي إلى تخريب فكرة الوحدة

العربيـة في الوقـت الذي تطغى الصـور النمطية المليئـة بالتحامل على عقول ومخيلات المواطنين العرب في مختلف بلدانهم كالصورة النمطية المصرية المتمثلة في الراقصة الشرقية، أو صورة الرجل الخليجي الثري، أو صـورة التاجر اللبناني[88]. في هذا العصر؛ عصر القنوات الفضائية، اتخـذت النمطيـة منحى آخر، حيـث إن القنوات اللبنانيـة تحولت إلى مراكز اسـتقطاب لأجمل المذيعات التلفزيونيات اللواتي يثرن بدورهن، إعجاب المشاهدين الخليجيين[89]. يقوم بعض العرب باستخدام عبارات التورية حول هذا الموضـوع على نطاق واسع بحيث يمارسون اللعب على الكلمات مستبدلين شـعار محطة LBC الفضائية اللبنانية بفعل عربي له مدلول جنسـوي هو "إلبسـي"، ملمحين بذلك إلى الثياب القصـيرة والضـيقة التي ترتديها مذيعـات المحطة ومقاطع الفيديـو التي تعرض نساء يرتدين ثياباً غير محتشمة[90].

شعبية الميدان

تسـاءلت إحدى الكاتبات في صـحيفة (الشرق الأوسط) حول حال بعض الصـحفيين المبتدئـين في المنطقة[91]. أشـارت بشـكل خاص إلى أحـد الصـحفيين الذين قابلتهـم، وكان قد بـدأ العمل في هـذه المهنة لتـوه. اشـتكى ذلك الصـحفي من رؤسـاء التحريـر الذين نـادراً ما يقدمون له مكافآت مالية، وهو ما عَدَّهُ اسـتغلالاً لمواهبه وكذلك لمواهب أقرانـه الجـدد. لم تذكر الكاتبة تلك القصـة بسـبب تعاطفها مع حال ذلـك الصـحفي؛ بل من أجل مقارنة الوضـع الآن بالوضـع الذي بدأت فيه مهنتها الصـحفية (من الواضـح أن ذلك بدأ قبل سـنين عديدة).

امتدحت رؤساء التحرير السابقين الذين عملت لديهم، والذين رفضوا أن يقدموا لها أي عائد مادي لقاء المقالات الأولى التي كتبتها. لم تحصل على مكافأتها المادية الأولى إلا بعد سنوات عندما جمعت كل مقالاتها في كتاب وعرضته للبيع.

ولكن إذا كان العمل في الصحافة المطبوعة غير مجزٍ مادياً، كيف يمكن للصحافة أن تستقطب المتدربين الجدد؟ إن عامل الجذب في أي مهنة يتوقف في معظم الأحيان على سمعة هذه المهنة. فإذا كانت سمعة علماء الكيمياء على سبيل المثال، مرتبطة بصناعة الأسلحة والقنابل، فإنها سوف تكون بالتأكيد أقل جاذبية بكثير بالنسبة للشباب كي يلتحقوا بهذا الاختصاص. تأرجحت سمعة الصحفيين العرب مع صعود الحرية الصحفية وهبوطها في كل بلد من البلدان على حدة. لقد ساهم الرزوح تحت سيطرة القوى الاستعمارية طيلة القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين في ترسيخ صورة معينة عن الصحفيين. كانت الصحف الصادرة حينئذ تدعو إلى الاستقلال والوحدة، وهو ما أدى إلى اجتذاب أعداد كبيرة من القراء. في بداية الأربعينيات من القرن العشرين على سبيل المثال، عزز العديد من الصحفيين اللبنانيين الذين طالبوا باستقلال بلادهم من صورتهم أمام الناس[92]. ولكن بعد نيل الاستقلال، كان على بعض البلدان العربية التعامل مع سلطة من نوع آخر، وبالتحديد الحكم الديكتاتوري والسلطة العسكرية. فقد قامت الحكومة المصرية الجديدة المكونة من الضباط الذين قادوا الثورة سنة 1952 بإيقاف صحف الأحزاب. كما تم احتجاز

بعض الصحفيين بسبب نشرهم مقالات بطريقة عُدَّت استفزازية من قبل الحكومة. من بين هؤلاء، كان الصحفي المصري المخضرم مصطفى أمين الذي تم اعتقاله سنة 1952 بسبب نشره مقالاً عَدَّتْهُ الحكومة مسيئاً لسلطتها[93].

بالرغم من ذلك، عَدَّتِ الدول العربية المستقلة حديثاً وسائل الإعلام الإخبارية ممثلة لها بين الجماهير؛ ومن ثَمَّ فقد سيطرت تلك الدول على حركة هذه الوسائل الإخبارية الإعلامية ومحتواها، بدلاً من أن تكون تلك الأخيرة منبراً للمطالبة بالديمقراطية التي كانت تشكل مطلباً مزمناً للجماهير. تبعاً لذلك، بدأت مصداقية الصحفيين مثاراً لشكوك القراء الذين رأوا صحافتهم الوطنية تتحول إلى أبواق للحكومات. أشارت عواطف عبد الرحمن[94] إلى هذه القضية لكونها واحدة من التحديات الخطيرة التي تواجه الصحفيين ومهنة الصحافة في المنطقة. يقول كيرات[95] إن مهنة الصحافة في الجزائر فقدت احترامها ومكانتها أمام أصحاب المهنة أنفسهم والجماهير على حد سواء. فالصحفي هناك لا ينظر إليه باحترام كبير، وهو أيضاً غير مرحب به في المكاتب والإدارات؛ فالجمهور لا يثق به، كما أن الشعب لا يريد أن يسمع عنهم أو يتعاطى مع الصحافة أو الصحفيين. وهكذا لم يكن بمقدور الصحفيين كسب تعاطف الجمهور بسبب هذه الأوضاع الصعبة التي كان عليهم العمل من خلالها.

عبّر الصحفيون الجزائريون العاملون في الصحافة المطبوعة، خصوصاً النساء منهم، عن إحساسهن بالإحباط جرّاء تأثير وضع

مهنتهن على حياتهن الخاصة. تذكّر بعضهن الصعوبة التي عانينها في مسألة زواجهن، بسبب أن الرجال يربطون بين مهنة الصحافة والعمل حتى وقت متأخر، ومقابلة الرجال، ومواجهة الأخطار، وهكذا، أو كما عبرت عن ذلك إحدى الصحفيات الجزائريات بالقول "إن المجتمع الجزائري ما زال ينظر إلى المرأة الصحفية كامرأة مدمنة على التدخين، وتختلط بالرجال وتقيم معهم علاقات خاصة"[96].

بالرغم مما تقدم، تُعَدُّ الصحافة حالياً إحدى أكثر الاختصاصات شيوعاً بين الطالبات العربيات في الجامعات العربية. ففي لبنان وحده، تشكل الطالبات اللواتي يدرسن الصحافة ووسائل الاتصال نسبة 85 في المائة من المجموع الكلي للطلبة، وهي نسبة أعلى من نظيرتها في العديد من الجامعات الأوروبية[97]. هذه النسبة غير مفاجئة إذا أخذنا في الحسبان مسألة أن الصحفيين والصحفيات العرب خصوصاً في القنوات الفضائية تحولوا إلى نجوم بسبب شجاعتهم التي أبدوها في أثناء تغطيتهم للأحداث في قلب دائرة الخطر كما حدث في الحرب على العراق والانتفاضة الفلسطينية على سبيل المثال. لقد أصبحوا "الأبطال" الجدد الذين يتحملون المضايقات ويواجهون الموت والاعتقال في مهمتهم في البحث عن الحقيقة[98]. ترتبط السلطة الرابعة إلى حد كبير بحيوية المراسلين الصحفيين وتضامنهم مع بعضهم بعضاً في التأكيد على مصداقية مهنتهم. لقد أصبح المذيعون العرب خصوصاً في القنوات الفضائية يتمتعون بالشهرة والجاذبية، كما أصبح لهم آلاف المعجبين. وتحولت العديد من المذيعات الفاتنات في

برامج المنوعات، خصوصاً اللبنانيات، إلى "فتيات أحلام" للملايين من الشباب العرب[99]. أما المذيعون والمذيعات "الشجعان" في القنوات الإخبارية "الجادة، الذين يديرون برامج حوارية سياسية ساخنة، فإنهم يستطيعون بزّ المطربين في عالم الشهرة بين الشباب العرب[100].

لم تقتصر النجومية على مذيعي التلفزيون الذين أصبحوا ضيوفاً تكرر ظهورهم في البرامج المفضلة عند المشاهدين، بل تعدتها إلى الصحفيين العاملين في مجال الصحافة المكتوبة الذين أخذوا نصيبهم من الشهرة أيضاً. بعض هؤلاء الصحفيين المشهورين لهم برامجهم التلفزيونية مثل الصحفي المصري حمدي قنديل الذي كان يبث برنامجَه التلفزيونُ المصري بعنوان "رئيس التحرير"، كما أن رئيس تحرير صحيفة الأهرام الأسبق محمد حسنين هيكل يقدم برنامجه الخاص به بعنوان "مع هيكل" على قناة الجزيرة. ولقد عزز هذا كما أسلفنا من أهمية الدور الجديد الذي يضطلع به الصحفيون المشهورون كخبراء سياسيين. سعى العديد من الصحفيين اللبنانيين كذلك من أجل الحصول على مقعد نيابي في انتخابات سنة 2000. وكان أحد هؤلاء رئيس إذاعة صوت الشعب الذي دافع عن هذا الاتجاه السائد بين الصحفيين من أجل تبوء مواقع سياسية من خلال التأكيد على أن الصحفي أقرب إلى استيعاب العمل السياسي من الطبيب أو المهندس، على سبيل المثال؛ فمن وجهة نظره، أن "العلاقة بين الصحافة والسياسة علاقة متينة"[101].

لكن جدية العمل السياسي في برامج الأخبار الثقيلة الوطء والقضايا المعاصرة تواجه انتقادات من قبل نوعية جديدة من

الصحفيين الصاعدين المتخصصين في برامج حوارية ذات موضوعات "لطيفة" وخفيفة. ففي حلقة خاصة من برنامج (من واشنطن) الذي يبث على قناة الجزيرة، وكان موضوعها يتناول موقع الولايات المتحدة في البرامج الحوارية الشعبية على التلفزيون المصري، بدأ أحد ضيوف البرنامج، وهو مقدم أحد البرامج الحوارية المصرية بتقريع مقدم البرنامج الذي تبثه الجزيرة وهو حافظ الميرازي، وذلك لتخليه عن وجهه البشوش تحت الهواء، والاستعاضة عنه بوجه متجهم عندما تدار الكاميرا من أجل أن يبدو "جاداً"[102]. سوف أعود للحديث عن التوتر الحاصل بين البرامج الحوارية السياسية والخفيفة في الفصل الرابع.

غرف الأخبار المؤنثة

يعلق كل من وو، وويفر[103] على ازدياد عدد الطالبات في كليات الصحافة في بلدان أقل تطوراً مثل الصين، ويتساءلان فيما إذا كان يمكن لهذه الظاهرة أن تكون مؤشراً على توجه جديد "لتأنيث" الصحافة. هل يمكن أن تنسحب هذه المناقشة على المنطقة العربية، إذا أخذنا في الحسبان أن حضور الصحافيات العربيات سوف يؤدي لا محالة إلى تغيير داخل الميدان الصحفي، وربما إلى إعادة توزيع رأسماله؟ اكتشف رايت[104] أن الصحفيات السعوديات (على الأقل، اللواتي التقى بهن) حصلن على درجات علمية أعلى من الصحفيين الذكور، بالرغم من حقيقة أن النساء يشكلن 6 في المائة فقط من القوة العاملة في مجال الصحافة. وفي الكويت، تشكل الإناث نسبة 70 في المائة من الخريجين في أقسام وسائل الاتصال. لكن أغلب هؤلاء الخريجات يتركن هذا الميدان

ويلتحقـن بمجالات عمـل أخرى؛ ومَرَدُّ هذا هو القلـق الذي يبديه الأهل على بناتهم، أو تجنباً للمواقف السلبية للناس من هذه المهنة[105]. أظهرت دراسـة أخرى تناولت أوضـاع العمل بالنسبة للصـحفيات في المحطات التلفزيونية اللبنانية[106] أنه بالرغم من أن الصحفيات النمطيات يحملن شـهادات جامعية أعلى من أقرانهن من الصـحفيين الذكور، فإن درجة إحساسـهن بالأمان الوظيفي أدنى من إحساس نظرائهن الذكور في هذا السـياق؛ كما أن فرصـهن في الترقية الوظيفية أقل من فرص زملائهن الصـحفيين. ركزت الصـحفيات على أن المعايير المزدوجة التي يتعامل بهـا الرجال معهـن وظيفياً هي السـبب الرئيـس لقيام الذكـور بتعيين نظرائهم الذكور في مراتب وظيفية أعلى، وحتى النساء اللواتي يستطعن إثبات أنفسهن في الحقل الوظيفي، لم ينلن التقدير الكافي من زميلاتهن اللواتـي اعتبرن عملية الترقيـة تلك بمنزلة مكافأة لهؤلاء الصـحفيات على علاقات خاصة أقمنها مع رؤسائهم الذكور في العمل.

إن الهوة الهرمية بين الصـحفيين والصحفيات انعكست أيضاً على المكافآت المالية: فبينما يحصـل الذكور على مزايا على شكل منح مالية لتغطيـة تكاليف تعليم أولادهم، وشـمولهم بنظام تأمين ومزايا أخرى، تتلقى الصـحفيات إعانات لتغطية نفقات التجميل، وتصـفيف الشعر، وما إلى ذلك. وقد لعب هذا كله دوراً في موقف الصـحفيين من معايير النجـاح في المهنة: فالصـحفيون عَدُّوا الخبرة هي المعيـار الأهم، بينما رأت زميلاتهم الصـحفيات أن المظهر والشـباب هما أهم معيارين من معايير النجاح بالنسبة لهن. كما أن كلاً من هاتين المجموعتين كان لها رأي حـول دورها يختلف عـن المجموعة الأخرى: فالصـحفيون رأوا أن

مهمتهم تتطلب منهم تعليم الجمهور وتثقيفه، بينما رأت الصحفيات أن تسلية الجمهور تشكل مسؤوليتهن الأولى[107].

تبين من خلال دراسة سابقة أجرتها منظمة اليونسكو[108] أن الصحفيات في العديد من البلدان العربية ما زلن يشكلن أقلية بالمقارنة بالصحفيين (خصوصاً في الصحافة المطبوعة). وحتى عندما تتبوأ إحداهن مركزاً مهنياً مرموقاً، فإن رِفعة المنصب لا يمكن أن تكون المؤشر الوحيد على "تأنيث" المحتوى نظراً لوجود عشرات الموانع التي تضع قيوداً على قواعد البث أو النشر؛ فهناك موضوعات حول الدين والعائلة وختان البنات وما إلى ذلك، تدخل في قائمة المحرمات، وهو ما يجعل من الصعوبة بمكان على الصحفيات، حتى اللواتي يتبوأن مناصب رفيعة، تغيير الواقع الراهن[109].

تشير عبد الرحمن[110] في دراسة أخرى إلى سياسة العزل المستند إلى المحتوى بناء على تأنيثه. ومن ثَمَّ فإن الرسائل التي تكتبها النساء، والتي ترد إلى المحرر، نادراً ما يتم نشرها خصوصاً إذا كانت تتناول قضايا نسائية. حتى عندما يحاول قسم المرأة أن يقدم للنساء نموذجاً يحتذى، فإن هذا النموذج يشير عادة إلى امرأة أمريكية، ومن ثَمَّ يتم تجاهل نساء أخريات من المنطقة نفسها يمكن اعتبارها نماذج تحتذى. بالإضافة إلى ما تقدم، يبدو أن قسم المرأة في الصحيفة قد أصبح منفى للصحفيات اللاتي يعتبرن غير مرغوب بهن في الأقسام الأخرى. فالأقسام السياسية تُعَدُّ الأولى بين الأقسام الرفيعة الشأن في الصحيفة، يليها القسم الاقتصادي، ثم شؤون المجتمع؛ أما في أسفل هرم الصحيفة، فيقبع قسم المرأة.

استناداً إلى ما ذكرته عبد الرحمن[111]، استطاعت الصحفيات أن يتبوأن مناصب رفيعة في الصحافة المصرية، ولكن ذلك اقتصر على مجلات الأطفال أو المجلات النسائية. مع ذلك، بقي قسم الصحافة مركز استقطاب لمئات من الطالبات في المنطقة، كما ذكرنا سابقاً، بالرغم من أن تلك الطالبات يطمحن عادة إلى الحصول على وظيفة في الصحافة المرئية وليس في الصحافة المطبوعة[112]. العمل في مجال الصحافة أكثر تطلباً، كما تقول الصحفية الأردنية رنا حسيني (العاملة في صحيفة Jordan Times الصادرة باللغة الإنجليزية). اكتسبت حسيني شهرتها من خلال سلسلة من المقالات حول جرائم الشرف في الأردن، وهو موضوع مثير للجدل أدى إلى تلقيها رسائل تهديد كثيرة (بالرغم مما قيل إنها كانت تتمتع بدعم من العائلة المالكة الأردنية). زارت حسيني مستشفيات عدة ومراكز للشرطة من أجل جمع معلومات حول جرائم الشرف التي وقعت مؤخراً. وقد أغفلت في مقالاتها أي إشارة واضحة إلى هوية مرتكبي هذه الجرائم أو ضحاياهم[113].

مع ذلك، يمكن القول إن النساء سيطرن على شاشات القنوات الفضائية الجديدة الكثيرة، وحظين من الشهرة ما لم تحققه الكثير من الفنانات حتى اللواتي كن يمثلن رموزاً جنسية مثل مارلين مونرو[114]، وهو ما دفع إحدى الصحف العربية الرئيسة مثل صحيفة الشرق الأوسط إلى التساؤل عما إذا كانت هناك "مدة صلاحية" للصحفيات التلفزيونيات. في إحدى المقابلات التلفزيونية، اعترفت المذيعة التلفزيونية اللبنانية سعاد قاروط أن الأعداد المتزايدة من

خريجـات كليات الإعلام يمكن أن يكون لها تأثير في الوظائف المتوافرة للصـحفيات الأكبر سـناً. مع ذلك، كما تقول قاروط، فإن قارئة نشـرة الأخبـار الأكـبر سـناً والمتمتعة بروح مهنيـة عالية تلعـب دوراً مهماً في إضافة لمسة من "المصداقية" على الأخبار.

بالإضافة إلى اسـتخدامهن "كطعم" من أجل اجتذاب نسبة عالية من المشـاهدين، أثبتت بعض المذيعات جدارتهن في مجالات أكثر جدية مثل قراءة الأخبار والمناقشـات. مـن الأمثلة على ذلك، المذيعة الأردنية منتهى الرمحي التي كانت إحدى نجمات قناة الجزيرة، وهي الآن تعمل في قنـاة العربية. تحدثت بتباهٍ عن قدراتها كمذيعة أخبار، كونها قادرة علـى إخفـاء انفعالاتها وهي تنظر بطريقـة حازمة إلى الكامـيرا. تَعُدُّ المزج بـين تقديم الأخبار وإجراء المقابلات ميزة إضـافية لها بالمقارنة بزملائها الذكور الذين اكتسـبوا شـهرتهم من خلال إجراء المقابلات فقط[115]. تحذر إحدى نجمات قناة الجزيرة، الجزائرية خديجة بن قنة مـن توجه بعض هؤلاء المذيعـين نحو تقديم برامج منوعات خفيفة؛ وهو في رأيها، سيؤدي إلى "تخريب صورتهم"[116].

اسـتطاعت بـن قنـة في الحقيقة كسـب قلـوب شـريحة كبيرة من مشاهدي قناة الجزيرة عندما ظهرت وهي ترتدي الحجاب خلال الفترة التـي كثرت فيها النقاشـات حول قيام الحكومة الفرنسـية بمنع ارتداء الحجـاب في المدارس الحكومية. من المفارقة أن بن قنة نفسـها هربت من بلدها الجزائر بسـبب تهديـدات تلقتها لعدم ارتدائها الحجاب[117]. شهدت السنوات الثلاث الماضية أيضاً عدداً من الاحتجاجات قامت بها

بعض المذيعات اللواتي منعن من الظهور على الشاشة بعد ارتدائهن الحجاب. قدمت بعض هذه المذيعات شكوى إلى المحكمة، وحصلن على إذن بممارسة "حريتهن الشخصية". وبذلك، رفضت المحكمة قرار وزير الإعلام القاضي بإيقافهن عن العمل.

أكثر من ذلك، أثبتت الصحافيات قدراتهن الاستثنائية في العمل كمراسلات، نظراً لأنهن وبحكم كونهن نساء، ينظر إليهن باعتبار أنهن يمثلن تهديداً أقل من الصحفيين الذكور[118]. فالصحفيات التلفزيونيات خصوصاً اللواتي يعملن في الأراضي الفلسطينية، غالباً ما ينظر إليهن باعتبار أنهن عنوان للشجاعة في ممارستهن لهذه "المهنة المثيرة للمتاعب". تتذكر مراسلة تلفزيون أبو ظبي في الأراضي الفلسطينية ليلى أبو عودة على سبيل المثال، "المهمة" الصعبة التي طلب إليها تنفيذها والمتمثلة في تغطية الشأن الفلسطيني، بما في ذلك إطلاق النار عليها وإصابتها في قدمها في مدينة رفح، لكنها قالت: "لم يمنعني ذلك من استئناف مهمتي الإعلامية"[119]. وتَعُدُّ مراسلة الجزيرة في الأراضي الفلسطينية، شيرين أبو عاقلة الصحفي الفلسطيني بشكل خاص جندياً: "يقاتل الصحفي الفلسطيني جنباً إلى جنب مع أخيه الفلسطيني الذي يقاتل بالسيف ... نحن نقاتل من أجل الوصول إلى الحقيقة، وليس أي شيء آخر"[120].

أظهرت الدراسة التجريبية التي قام بها القادري وحرب أن الصحفيات يحملن شهادات أعلى من نظرائهن من الصحفيين الذكور[121]. هذه الدراسة التي أجريت على عدد من الصحفيين

والصحفيات في لبنان، العاملين في القنوات التلفزيونية اللبنانية، قامت بتوثيق المستوى التعليمي العالي لهؤلاء الصحفيين والصحفيات، أي الشهادات الجامعية التي يحملونها، بالإضافة إلى إتقانهم لغة أجنبية أو أكثر؛ بالإضافة إلى أنها ألقت الضوء على الدور المستمر للعلاقات الاجتماعية والشخصية كطريق للدخول إلى هذا الميدان. باختصار، يعزز هذا من الدور المزدوج الذي يلعبه كل من التعليم والعلاقات الشخصية كعامل للدخول إلى هذا العالم الشديد التنافسية.

الدخول إلى الميدان

هناك كلمتان باللغة العربية تشيران إلى عمل الصحفي: الأولى هي كلمة (صحفي) والثانية (إعلامي) وهما تدلان على من يعمل في مجال الصحافة المكتوبة والصحافة المرئية والمسموعة على التوالي. استناداً إلى رأي إبراهيم هلال رئيس محطة الجزيرة الأسبق، فإن كلمة (صحفي) تتضمن معنى غير صحيح في اللغة العربية إذا ما قورنت باللغة الإنجليزية، حيث تشير كلمة (صحفي) إلى مراسلي الصحافة المكتوبة أو المرئية والمسموعة[122]. يشير هذا كله إلى الضبابية في الحدود بين العمل في الصحافة المرئية والمسموعة من جهة والصحافة المطبوعة من جهة أخرى، خصوصاً إذا تذكّرنا المكانة التي يتمتع بها بعض الصحفيين العاملين في الصحافة المكتوبة بسبب ظهورهم بصفة "خبراء" على شاشات القنوات الفضائية الجديدة. وإذا كان التمييز بين هذين الحقلين الفرعيين ما زال صالحاً، فقد يكون له تأثير في مدخلات جديدة في ميدان الصحافة فيما يتعلق بالتعليم والتدريب.

ولكي نقدم عرضاً وافياً للميدان الصحافي، لا بد من الأخذ في الحسبان قضايا مثل التعليم، والاستقلال الذاتي، والمعايير الأخلاقية التي تشكل الهوية المهنية للصحفيين العرب. تظهر الدراسات السابقة[123] أن غالبية الصحفيين العرب يحملون شهادات جامعية بالرغم من أن هناك نقصاً في التدريب فيما يتعلق بالجانب المهني[124]. لكننا لا نعرف سوى القليل عن الأسباب الذي جعلتهم يختارون العمل في هذا الميدان؛ على سبيل المثال، ربما كان ذلك يعود إلى رغبتهم في ممارسة تأثير ونفوذ في ميادين أخرى لا يستطيعون الولوج إليها، استناداً إلى ويفر الذي ذكر أن "الأشخاص الذين يختارون العمل الصحفي هم أناس تستهويهم السياسة أو الرياضة أو التجارة، أو ميادين أخرى في المجتمع المنظم، إلا أنهم لا يدخلون إلى هذه المعتركات بل يختارون بدلاً من ذلك الوقوف على خطوط التماس والاكتفاء بدور المراقب"[125].

يظهر الاستطلاع الذي أجراه كيرات[126] بين الصحفيين الجزائريين أن نسبة كبيرة من هؤلاء ذكروا أن الدافع الرئيس لدخول معترك العمل الصحفي كان رغبتهم في تقديم خدمة لبلدهم ومواطنيهم. أما الاستطلاع الذي قام به الرشيد[127] بين الصحفيين الكويتيين فإنه يظهر أن أغلب المستطلعة آراؤهم كانوا سيختارون ميدان الصحافة من جديد كمهنة، لو قيض لهم ذلك، وأنهم سيشجعون أبناءهم لدخول المعترك نفسه (ولكن ليس بناتهم!). يعود ذلك إلى اعتقاد راسخ بأن الصحافة لها تأثير كبير في صناعة الرأي العام.

لكن جمّال[128] يرى أن ميدان العمل في الصحافة المكتوبة ليس مفتوحاً أمام جميع المواطنين في المنطقة العربية. هناك ست دول عربية (مصر

والسـودان والسعودية ولبنان وتونس والمغرب) لا تفرض أي شروط على الأشـخاص الراغبين في الدخول على المعترك الصحفي؛ لكن دولاً مثل الكويت والبحرين وقطر وعمان وسوريا واليمن وليبيا والجزائر، تطالب الراغبين في الانضمام إلى السلك الصحفي بالحصول أولاً على رخصة لمزاولة المهنة من السـلطات. لكن هذه الشـروط لا تنطبق على وسـائل الإعلام الإلكترونية، خصوصـاً القنوات الفضـائية الجديدة المنتشـرة بكثرة؛ وهـو ما يتطلب البحث عـن تعريف محدد لعبارة (الصـحفي) وما يميز هذا الاختصاص عن الاختصاصات الأخرى كامتلاك الموهبة مثلاً، أو الحصول على شهادات جامعية باختصاصات معينة، أو تزكية من بعض المعارف. يقول تركسـتاني[129] إن المرء بحاجة إلى المعارف من أجل الحصـول على هذه الوظيفة بأقل المتطلبـات، بينما يتطلب ارتقاء السلم الهرمي في هذا المعترك حضوراً صوتياً ومهارات تحريرية.

يبدو أن بعض الباحثين العرب يعطون أهمية أكبر للموهبة "الفطرية" التي تشذّبها الدرجات العلمية ذات الصلة. يضع عبد النبي[130] الصحفيين ضمن أربع مجموعات رئيسة بحسب مهاراتهم ومواهبهم:

1 - الصـحفيون الذيـن لديهـم الشـهادة العلميـة والموهبـة المناسبتان؛

2 - الصـحفيون الذين لديهم الشـهادة العلمية المناسبة، ولكن ليست لديهم الموهبة؛

3 - الصـحفيون الذين ليسـت لديهم الشهادة العلمية المناسبة ولكن لديهم الموهبة؛

4 - الصحفيون الذين ليست لديهم الشهادة العلمية أو الموهبة (خصوصاً أولئك الذين يعملون في ميادين أخرى كالإدارة قبل الحصول على الشهادة الجامعية كبطاقة تؤهلهم لدخول الميدان الصحفي).

يشير عبد النبي إلى أنه في الوقت الذي يوجد فيه كم كبير من الصحفيين الذين تنطبق عليهم مواصفات المجموعات الثانية والثالثة والرابعة، فإن هناك نقصاً في عدد الصحفيين الذين تنطبق عليهم المواصفات المذكورة في المجموعة الأولى (أي الشهادة العلمية والموهبة)؛ ومن ثَمَّ، يجب التأكيد على أهمية الموهبة، وليس فقط عامل التدريب، كأحد المتطلبات الأساسية للعمل في هذا الميدان. وهكذا، يبدو أن مقولة "التعلم من خلال الممارسة" تمثل الإستراتيجية الرئيسة للعمل في قطاع التلفزيون الذي شهد توسعاً هائلاً في العقد الأخير من القرن العشرين. صوّر مدير إحدى المحطات التلفزيونية اللبنانية الوضع كما يلي: "التلفزيون أشبه ما يكون ببحر نرمي بك فيه. فإما أن تسبح، وإما أن تغرق"[131].

على الرغم من القيمة التي تعطى للتعليم المناسب، فإن مؤسسات وسائل الإعلام الإخبارية تتهم بأنها تصطاد مهنيين مدربين وجاهزين للعمل بدلاً من الاستثمار في البرامج التعليمية لأصحاب المواهب من المبتدئين. وبحسب ما ذكر عمرو ناصيف (مقدم أحد البرامج الحوارية في تلفزيون المنار الممول من حزب الله)، فإن وسائل الإعلام الإخبارية خصوصاً القنوات الفضائية، تفضل اصطياد مقدمي برامج ومذيعين

مـن أفضـل الموجوديـن في هذا الميـدان على تدريب وصـقل أصـحاب المواهـب الجـدد"[132]. لكـن هـذه الموجـة يمكـن أن تغير مـن اتجاهها كمـا ظهـر في العقد الأخير الذي شـهد ميلاً من قبل بعض المؤسسـات الإعلاميـة لإعطـاء أهمية أكـبر لمرافقها التدريبية. فـدار أخبار اليوم للنشـر الـذي يتخذ مقـراً لـه في المدينة الإعلاميـة بالقاهـرة أطلقت أكاديميتها الخاصة بها، التي افتتحها الرئيس المصري في شهر تشرين الأول، أكتوبـر، سـنة 1998. تمنح هذه الأكاديميـة درجة البكالوريوس في الدراسات الإعلامية، وهي معادلة للدرجات التي تمنحها الجامعات الحكومية الوطنية. تهدف هذه الأكاديمية إلى تطوير المهنة الصـحفية في مصر، وتهيئة كوكبة جديدة من الصحفيين المتخصصين في مجالات صـحفية واسـعة. وكان أحد أهداف هـذه الأكاديمية يتمثـل في تطبيق سياسة "الانفتاح" على الكليات الإعلامية الأجنبية من خلال اتفاقيات خاصـة تعقدها معها. وكان المنطق الـذي يحكم هذا التوجه يهدف إلى توفير المسـاعدة للوفاء بالاحتياجات الدائمة التي يتطلبها التخصـص التكنولوجي المتقدم، والقوة العاملة المدربة تدريباً عالياً. أطلقت كذلك قناة الجزيرة أكاديميتها الخاصـة بها؛ وهذه الأكاديمية تقدم مقررات مهنية مكثفة، كما تقوم بتنظيم حلقات بحث وورش عمل. تسـتفيد هذه الأكاديمية من خبرة إحدى المؤسسات البريطانية التي توفر للأكاديمية المدرسين والمناهج التعليمية لهذه المقررات[133].

تُعَـدُّ عمليـة تأمـين فرص للحصـول على تدريب تخصصـي عالي المسـتوى في مجـال الصـحافة المكتوبة والمسـموعة والمرئية وسـيلة من

وسائل تمايز الصحافة "كمهنة"؛ خصوصاً في العصر الحالي، حيث ينظر إلى شبكة الإنترنت كمنصة بالنسبة لأعداد كبيرة من وسائل الإعلام الجديدة البديلة. من المهم جداً في هذا السياق إنشاء روابط مهنية تحكمها جملة من القوانين يلتزم بها جميع الصحفيين. تتناول الفقرة التالية باختصار، أهمية مثل هذه الروابط في خلق هوية جديدة يشترك فيها جميع المنتسبين بمن فيهم الصحفيون المعروفون؛ مع تركيز خاص على السياق العربي الذي تنتشر في فضائه العديد من المحطات الإعلامية العربية القومية داخل منطقة الشرق الأوسط وخارجها.

الهوية المؤسساتية

يرى الجمّال[134] أن مسألة تنظيم عمل الصحفيين والعاملين في مجال الاتصالات في منطقة الشرق الأوسط تخضع للسياسة الداخلية في كل بلد على حدة. تضع الحكومات العربية يدها على وسائل الاتصال، كما تضع القوانين والقواعد الناظمة لعملها بالرغم من حقيقة أن الدساتير في تلك البلدان نفسها لا تتضمن إشارة إلى مثل هذه القواعد[135]. تعزو السلطات تدخلها إلى رغبتها في المحافظة على الاستقرار الاجتماعي والسياسي داخل المجتمع المدني. بدأ تأسيس نقابات الصحفيين في المنطقة العربية في الأربعينيات والخمسينيات من القرن العشرين متأخرة عن نظيراتها في الدول الأخرى. كان يسمح للقوى العاملة بالانتظام في نقابات ذات صلة بالمهن التي تمارسها هذه القوى؛ ولذلك كان العاملون في مجال الطباعة منضوين تحت مظلة نقابة مستقلة عن الصحفيين. توجد اثنتان من النقابات في لبنان على سبيل المثال:

واحدة لمالكي الصحف وأخرى للصحفيين. تحاول مثل هذه المنظمات التأكيد على حق الصحفيين في حماية مصادر معلوماتهم، بالإضافة إلى الدفاع عن حقوقهم في الكتابة من دون التعرض لمخاطر عقوبات جزائية، أو ضغوطات من أي نوع كان.

نقابة الصحفيين اليمنيين هي أيضاً واحدة من منظمتين في اليمن. ولهذه النقابة الحق في منح العضوية لأي صحفي أو حجبها عنه؛ كما أنها تقف عادة إلى جانب الصحفيين الذين يجدون أنفسهم في مواجهة مع السلطة من أجل الحصول على حرية أكبر، ولكن من دون تحويل النقابة إلى منظمة معادية للحكومة. وبالرغم من أن المنظمة غير مرتبطة بأي تنظيم أو حزب سياسي، فإن موقفها المؤيد للحكومة دفع العديد من الصحفيين إلى إنشاء اتحاد آخر أطلق عليه اسم (لجنة الدفاع عن الصحفيين) سنة 1999[136]. هذه المنظمات العمالية، كما يراها الجمّال[137]، يمكن تصنيفها ضمن ثلاث مجموعات: تنتمي الأولى من بين هذه المجموعات إلى بلدان تمنع أي شكل من أشكال هذه المنظمات؛ أما النوع الثاني فينتمي إلى بلدان لا يكون الصحفيون أنفسهم فيها على دراية بأهمية العمل النقابي؛ وينتمي النوع الثالث إلى موضوعات أخرى لم تتطور الصحافة فيها بعد، بشكل ناضج إلى مهنة؛ ومن ثَمَّ لا توجد حاجة ملحة لتشكيل مثل هذه النقابات.

من ناحية أخرى، لا يجوز أن نهمل التأثير الذي تحدثه عملية إعادة موضعة الصحفيين من هذه البلدان التي لها تاريخ أطول في عالم الصحافة مثل مصر ولبنان إلى بلدان قامت بتطوير ثقافة صحفية

حديثة في القرن العشرين مثل بعض الدول الخليجية[138]. على سبيل المثال، هناك العديد من الصحفيين غير الكويتيين يعملون في الكويت، وهو ما يلعب دوراً في مستوى الصلة مع الاتحادات والمنظمات المهنية. يظهر استطلاع الرشيد[139] أن أغلب الصحفيين الكويتيين كانوا أكثر نشاطاً وفاعلية في الروابط الصحفية بالمقارنة بنظرائهم من غير الكويتيين، خصوصاً أن دستور الرابطة يتطلب أن يكون المنتسبون إليها من المواطنين الكويتيين كي تكون عضويتهم فيها فاعلة، أو من أجل المشاركة في اجتماعات الجمعية العامة.

كما نتج عن موجات الصحافة المهاجرة[140] تشتت في المحطات الإعلامية العربية داخل المنطقة العربية وخارجها. وإذا أخذنا في الحسبان حقيقة أن المحطات العربية تتصف باللا مركزية، لدرجة أن المركز الرئيس لبعض هذه المحطات موجود في مدن أوروبية (كلندن مثلاً)، وأن المركز الرئيس لبعضها الآخر موجود في بيروت أو القاهرة، فإن من المهم دراسة تأثير هذا في نقابات الصحفيين الذين يخضعون الآن لأنظمة تشريعية وثقافية مختلفة. إن من يملك مفاتيح السلطة والنفوذ داخل غرف الأخبار في الدول العربية هم رؤساء التحرير، وليس القوانين والأنظمة. أشار محمد كريشان (وهو أحد المذيعين المرموقين في قناة الجزيرة) إلى أن إبدال رئيس التحرير بآخر، يمكن أن يترافق مع تغيير في كامل السياسة التحريرية؛ ومن ثَمَّ إلى شكل من أشكال الاضطراب. كما يرى أن ما نحتاج إليه هو نوع من "المأسسة" التي تتمتع بها وسائل إعلام ذات تقاليد عريقة مثل محطة BBC، وذلك من

أجل ألا يتسبب التغيير على مستوى الإدارة في أي تغيير على السياسات الحالية للمحطة[141]. أهم ما يشير إليه هذا الرأي هو ما إذا كانت تلك المحطات العربية التي تبث من لندن مثل محطة BBC الفضائية التي تبث باللغة العربية،أو صحيفة الحياة تلتزم بضوابط مؤسساتية مختلفة فيما يتعلق بسياساتها التحريرية إضافة إلى مأسستها ضمن اتحادات مهنية.

قياس نسبة النجاح

يمكن ترجمة رأس المال المخصص للمشاركين في هذا الميدان إلى احترام ومقام رفيع ضمن مجال الميدان نفسه أو من خارجه. وهكذا، فإن الحصول على جائزة أو نيل مكافأة يمثل تقديراً من زملاء المهنة؛ وهو ما يزيد من "قيمة" المراسلين الذين يحصلون على هذا الشرف[142]. شهدت السنوات القليلة الماضية اهتماماً ملحوظاً في المنتديات الإعلامية العربية، ومن قبل المسؤولين بمنح الجوائز والمكافآت. أصبحت كل من دبي وبيروت على سبيل المثال، مركزين لجوائز الصحافة: استحدث نادي دبي الصحفي (سنة 1999) تحت رعاية ولي عهد إمارة دبي بهدف تشجيع العمل الإبداعي في هذا الميدان[143]. أما بيروت، فقد أصبحت مؤخراً مركزاً لمنح جائزة الشرق الأوسط للبث الإذاعي والتلفزيوني، وهي عبارة عن إيقونة مطلية بالذهب من عيار 24 قيراطاً، تقوم بتصنيعها الشركة نفسها التي تصنع إيقونات جوائز الإيمي والأوسكار[144].

إضافة إلى ما تقدم، يمكن اكتساب هذا الموقع الرفيع في مجال المهنة من خلال قدرة الصحفيين على دعوة كبار الشخصيات الغربية والإقليمية للظهور كضيوف أو خبراء في برامجهم السياسية الحوارية. يمكن لمثل هذا أن يكوّن عامل كرة الثلج في الصحافة التلفزيونية على وجه الخصوص. فبعد قيام قناة العربية الإخبارية ببث مقابلة مثيرة للجدل في شهر كانون الأول، ديسمبر سنة 2005 مع عبد الحليم خدام، النائب السابق للرئيس السوري، تبعتها القنوات الفضائية الأخرى والصحف والإذاعات التي تنافست فيما بينها للحصول على مقابلة أو تصريح من خدام الذي احتل هجومه على النظام السوري عناوين مثيرة. تفرض إذاً، المصادر تأثيرها من خلال تقرير كمّ رأس المال الذي تستحوذ عليه وسائل الإعلام؛ من هنا، تأتي السلطة التي تتمتع بها داخل هذه الهرمية.

الوسيلة الأخرى التي يمكن أن يتحول بواسطتها رأس المال إلى منزلة رفيعة تتجلى في النجاح التجاري المتمثل في المردود الذي ينتجه الصحفيون. تباهى أحد أشهر مقدمي البرامج في قناة الجزيرة وهو فيصل قاسم في مقالة له، أن نسخاً من برنامجه تباع في محال الفيديو، وأن إحدى الحلقات بيعت في السوق السوداء، حيث بلغت قيمة النسخة الواحدة منها مائة دولار. من الواضح أن القيمة التجارية للمنتج ليست كافية، كونها تعكس فقط الرأسمال الشعبي الذي حققته بين المشاهدين؛ إلا أن الصحفيين بصفتهم المهنية، يهمهم الحصول على اعتراف وتقدير أكبر من قبل زملائهم داخل المنطقة التي يعملون فيها؛ وربما أهم من ذلك، من قبل

المؤسسات الأجنبية. يتذكر قاسم على سبيل المثال الاهتمام الذي لاقاه برنامجه في البلدان الغربية؛ وهو ما دفع بالعشرات من الصحفيين من أوروبا والولايات المتحدة لزيارة برنامجه وإجراء مقابلات معه، وذلك من أجل الخروج بمقالات أو وثائق عن برنامجه[145]. وعلى المنوال نفسه، يُرجِع عبد الباري عطوان، رئيس تحرير صحيفة القدس العربي التي تصدر من لندن، الدعوات التي تلقاها من مختلف وسائل الإعلام الغربية الإخبارية لإبداء رأيه حول مختلف القضايا والأحداث العربية المهمة، إلى موضوعية صحيفته[146]، مؤكداً حقيقة أنه لا يمكن أن يدعى إلى مثل تلك اللقاءات لو لم تكن صحيفته تتحلى بالموضوعية. يتضمن هذا الرأي الإشارة إلى أن وحدة قياس الموضوعية تستند إلى المعايير الغربية، أي أن هذه المعايير هي التي تستند إليها وسائل الإعلام الغربية الإخبارية من أجل تخصيص مساحة للرسائل التي تتلقاها، أو الضيوف الذين تستضيفهم. يمكن أن تشير أيضاً إلى هرمية كامنة تمثلها المؤسسات الإعلامية، حيث تحتل أعلى المواقع فيها أكثر المؤسسات الإعلامية عالمية وانتشاراً مثل محطة BBC و CNN؛ حيث إن من تستضيفهم أي من هاتين المحطتين في برامجها الإخبارية كخبراء أو مصادر للمعلومات، سوف يَفيدون من المصداقية التي تتمتع بها هاتان المحطتان. يناقش الفصل السادس بتفصيل أكبر دور وسائل الإعلام الغربية كوحدة قياس.

الإطار التحليلي

استناداً إلى المناقشة المطروحة أعلاه، والمتضمنة عرضاً للعوامل المختلفة التي تشكل سمة للميدان الصحفي العربي، فإنني أطرح الرسم

التـالي كإطار أكثر تنظيمـاً للتحليـلات التجريبية المسـتقبلية لهرمية السـلطة في العمل الميداني على سـبيل المثال بين الصـحفيين العرب في المحطات الإعلامية الكثيرة والمنتشـرة في بلدان مختلفة (داخل منطقة الشرق الأوسط وخارجها).

تتمثل هذه الهرمية في الرسم البياني المبين في الرسم 1.2.

يستند هذا الرسم إلى عوامل ثلاثة:

1 - المشاهدون الأكثر استهدافاً: يُعَدُّ هذا عاملاً رئيساً في تقرير مـدى تأثير وسـائل الإعـلام في الرأي العام، بالإضـافة إلى التقاطع بين ميدان الصحافة وميادين السياسة والاقتصاد.

2 - السـلطة التي يتمتع بها الصـحفيون (بحسـب رأسـمالهم الثقـافي): هـذا العامل حاسـم في فهم خصوصـية الثقافة الصحفية العربية وكيف تتفاوت محلياً وإقليمياً.

3 - عامـل المحتـوى: يجب أن يتـم تقويم المحطـات الإعلامية إقليميـة كانت أم محلية، اسـتناداً إلى المحتوى الذي تقدمه، على سبيل المثال، هل هو تجاري/شعبوي أم سياسي/نخبوي؟ المسـألة الحاسمة هنا تتجلى في الأسلوب واللغة المستعملة في سـياق مختلف، وكيف يمكن لهذا أن يؤثـر في جماهيرية كل واحدة من هذه المحطات الإعلامية (انظر الفصـلين الثالث والرابع لمناقشة أكثر تفصيلا لهذه المسألة).

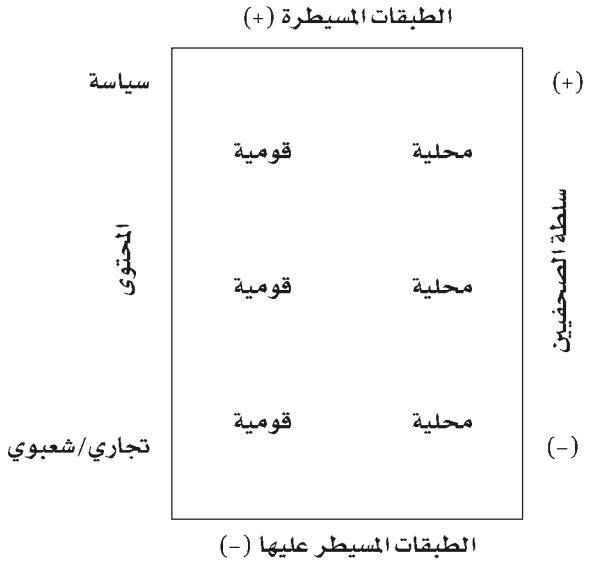

الرسم 1.2. توزع السلطات بين وسائل الإعلام العربية

تتوضع في الجزء العُلوي من الرسم البياني (++) المحطات الإعلامية التي تخاطب الطبقات النخبوية والتي يتمتع فيها الصحفيون بكم كبير من رأس المال الثقافي، أي التعليم والاطلاع على بعض السياسات. يتمتع هؤلاء الصحفيون بقدر أكبر من الشهرة بالمقارنة بنظرائهم في الميدان نفسه، ويمكن لهم أيضاً القيام بدور المعلقين السياسيين، بدلاً من الاكتفاء فقط بدور الصحفيين. يُعَدُّ تمكنهم من اللغة العربية الفصحى، وقدرتهم على استعمال الجانب الكتابي منها عنصراً حاسماً في رأسمالهم الثقافي (انظر الفصل الثالث).

أما في الجزء السفلي من الرسم البياني (ـ ـ) فتتوضع المحطات الإعلامية التي تستهدف بشكل رئيس الطبقات المهيمَن عليها. المحتوى هنا يتصف بالشعبوي أو التجاري، وهو بذلك يخدم المصالح الاقتصادية لتلك المنظمات الإعلامية بالطريقة نفسها التي يخاطب فيها أكبر شريحة عريضة ممكنة من المشاهدين. قد لا يكون الصحفيون العاملون في مثل هذه المحطات يتمتعون بالشهرة نفسها أو التأثير في الميدان الصحفي بشكل عام كنظرائهم المتوضعين في الجزء العلوي من الرسم البياني؛ إلا أنهم يتمتعون بقدر كبير من الاعتراف نظراً لشعبية البرامج التي يقدمونها، من دون أن نغفل مسألة أن الأسلوب واللغة المستعملَيْن في هذه البرامج يتوجهان في خطابهما إلى السواد الأعظم من الناس أكثر مما يخاطبان النخب، أي أن تلك البرامج تستخدم اللهجات العامية بدلاً من اللغة العربية الفصحى.

يمثل كل من هذين القطبين منطقة ثقافية: إحداهما نخبوية والأخرى شعبوية. وبين هذين القطبين، هناك محطات أخرى تتصف بمحتوى وممارسات تخلط بين ما هو نخبوي، وما هو غير نخبوي.

يشير المحتوى النخبوي في الغالب إلى برامج حوارية سياسية جادة، خصوصاً تلك التي تتناول قضايا ذات صلة بالسياسة الخارجية. لكن الأنماط الشعبوية يمكن أن تتضمن أيضاً برامج حوارية ذات طابع سياسي، لكن هذه البرامج قد تتناول السياسات المحلية التي يمكن أن تكون ذات طابع "خفيف". ومن ثَمَّ يمكن لأي قطب أو منطقة أن يكون

موضع اهتمام المحطات المحلية أو القومية؛ لأن بعض المحطات العربية القومية يمكن أن تقدم بعض البرامج "الشعبوية"، بينما "يتخصص" بعضها الآخر في مضمونات أكثر نخبوية.

إن القوة التي يتمتع بها الصحفيون تؤثر في الثقل الذي يعطى لكل وسيلة إعلامية وحتى للدولة المضيفة، في الوقت الذي تتأثر هذه القوة بالمحتوى الذي تقدمه هذه الوسيلة الإعلامية أو تلك. فقناة الجزيرة على سبيل المثال، استطاعت أن تصوّر قطر بوصفها منارة للحرية الإعلامية؛ ويعود الفضل في ذلك إلى كادرها الصحفي وطريقة ممارساته للمهنة، وليس إلى التقاليد الصحفية القطرية.

إضافة إلى ذلك، من المهم تذكّر أن السلطة الحقيقية تكمن في قدرة الممثلين على الإمساك بأطراف المعايير السائدة ولغة الخطاب الراسخة في هذا الميدان من أجل تبرير ما يقومون به مقابل هذه المعايير والخطابات نفسها. فالمحطات المتوضعة على قمة الرسم البياني يمكن أن تُبدي سمات خاصة تظهر في استخدامها للمصادر التي يتم توفيرها لها كالتكنولوجيا مثلاً؛ بينما لا تستفيد المحطات التي تقبع في أسفل الرسم البياني من هذه المصادر نفسها. يتواصل الصحفيون العاملون في المحطات النخبوية كذلك مع صانعي السياسات بصورة أكبر من نظرائهم العاملين في المحطات الشعبوية؛ وهو ما يجعل صحفيي المجموعة الأولى أكثر تأثيراً في عملية وضع معايير المهنة. مع ذلك، تدخل المجموعة الثانية إلى حلبة الصراع من أجل الحصول على المصادر ومن ثَمَّ، السلطة، بمقدار ما يحاول أفرادها القيام بتسويق

أنفسهم "كممثلين" للسواد الأعظم من الناس، مقدمين بذلك وحدة قياس أخرى للنجاح في هذا الميدان.

بشكل عام، يمكن القول إن الصحفيين العاملين في مجال قضايا سياسية معينة يمكن أن يتمتعوا بسلطة أكبر من تلك التي يتمتع بها أقرانهم الذين يتناولون قضايا "خفيفة". تضع المجموعة الأولى كما أسلفنا، يدها على حصة أكبر من رأس المال الثقافي الذي تم ربطه بامتلاك نصيب وافر من التعليم (المرادف لكلمة المعرفة)، وأداة لغوية نخبوية، أي اللغة العربية الفصحى.

يؤدي الرسم البياني الآنف الذكر دور الأداة التحليلية التي تساعد على تسكين الميدان الصحفي العربي استناداً إلى التقاطع بين البنية والمؤسسة، وليس اعتماداً على واحدة منهما دون الأخرى. كما يذهب إلى ما هو أبعد من مجرد جعل بعض المحطات الإعلامية تبدو وكأنها مثلاً يحتذى من خلال وصفها بالليبرالية أو الاستقلال الذاتي من دون تعليل موقعها تجاه المحطات الإعلامية الأخرى؛ بالإضافة إلى أنه يركز على الطريقة التي تؤثر من خلالها الممارسات الصحفية هناك في الوسائل الإعلامية الأخرى، وتتأثر بها. فالهدف إذاً، هو تحليل العلاقة المعقدة بين المحتوى والسلطة؛ وبين ما هو إقليمي وما هو محلي؛ وبين المحتوى والمشاهدين؛ وبين سلطة الصحفيين والمحتوى.

خاتمة

كان الهدف من هذا الفصل فتح المجال أمام بحوث مستقبلية بناءة حول الصحافة العربية مع التركيز على كل من "الممثلين" و "البنية". وكان الإطار النظري لمقاربتي هو نظرية بوردو التي تأخذ في الحسبان العلاقة الجدلية بين الممثلين (أي الصحفيين) وبين البنية (المؤسسات الإعلامية). تكمن قوة نظرية بوردو بحسب رأي بينسون[147]. في تركيزها على "المستوى المتوسط" في عملية ممارسة المهنة أكثر من تركيزها على تبني الرأي المبني على الاختيار في مجال البحث الذي تنبثق من مقارباته التنظيمية الجزيئية، مستويات مجتمعية شاملة. وهي أيضاً نظرية السلطة، حيث يخوض المشاركون فيها صراعاً مستمراً من أجل الحصول على السلطة من خلال عملية تجميع لرأس المال الموزع فيما بينهم بطريقة غير متساوية.

لقد قمت بطرح مؤشرات وإن بطريقة مختصرة، يمكن أن تسلط الضوء على طرائق مستقبلية في مجال الأبحاث. أهم هذه الطرائق هو

تعريف السلطة وكيف تتم ممارستها من قبل الصحفيين العرب. وأعني بذلك توزع السلطة بين مختلف اللاعبين الإعلاميين؛ خصوصاً تلك التي يطلق عليها وصف الوسائل الإعلامية العربية القومية كالجزيرة مثلاً، أو صحيفة الحياة. ولكي يكون بالإمكان فرض مجموعة من المعتقدات، على المرء أن يلجأ إلى عملية تجميع لرأس مال رمزي، أي السلطة؛ ولكن لكي يحقق المرء هذه الغاية المنشودة، عليه أن "يتحلى بالمصداقية"، وأن يظهر كشخص يتصف بالمسؤولية[148].

أستأنف في الفصلين التاليين هذه المناقشة مركزة بشكل خاص على محتوى الأخبار في المحطات الإعلامية الإخبارية التي تتحلى بالاحترام والتقدير كقناة الجزيرة أو صحيفة الحياة مقابل ما يسمى الصحافة الصفراء، أو التابلويد. النقطة المهمة في هذا السياق هي تبيان ما إذا كانت وسائل الإعلام الإخبارية قد استطاعت تسويق نفسها كفضاء عام يُسمح فيه لأصحاب الآراء المتنوعة بالتعبير عن آرائهم، وسماع أصواتهم في البرامج الحوارية حول قضايا الساعة. كما يتمثل هدفي الإجمالي في التمهيد للقيام بأبحاث في مجالات لم يتم التطرق إليها من قبل، التي يمكن أن تقدم أساساً متيناً للجدل الدائر حالياً حول الصحافة العربية ووسائل الإعلام العربية.

• تم تقديم النسخة الأولى من هذا الفصل في مؤتمر بعنوان «النظرية الاجتماعية والتغيير في وسائل الإعلام» الذي عقد في جامعة أكسفورد، بين 6 - 8 أيلول/سبتمبر، سنة 2006م.